النّحو العربيّ: النّشأة، والتّطوّر، وَتَعْليمِيَّتُهُ

Arabic grammar: Origin, development and its didactics

د/عليّ. كشرود

أستاذ مُحاضر –أ–

جامعة الجزائر –2– "أبو القاسِم سعْد الله"

alikachroud67@gmail.com

المُلخَّصُ بِاللُّغةِ العربيّةِ

تَهْتَمُّ الورَقَةُ البَحْثيَّةُ بِمَوْضوعِ: نَشْأَةِ النّحْوِ العربِيّ، ومَراحِلِ تَطَوُّرِهِ بَدْءًا مِنِ اِسْتفْحالِ ظاهِرَةِ اللَّحْنِ على لِسانِ الأعاجِمِ الدّاخلينَ فِيْ الدِّينِ الجديدِ فِيْ ظِلِّ تَوَسُّعِ اِنْتِشارِ الإسْلامِ عنْ طريقِ الفُتوحاتِ.

ومِنَ النّتائجِ المتَوَصَّلِ إليْها، هوَ اِقْتِراحُنا لإعادَةِ النّظَرِ فِيْ المَوْروثِ اللُّغوِيِّ لِلُّغَةِ العربيّةِ فِيْ ظلِّ ما جادَتْ بِهِ اللِّسانيّاتُ الحديثَةُ مِنْ نظَرِيّاتٍ وقَوانينَ تعْمَلُ على تَيْسيرِ سبُلِ تَعْليميَّةِ النّحْوِ العربِيّ بِمَنْظومَتِنا التّرْبويّةِ بِالجزائرِ.

الكلماتُ المِفتاحيّة

النّحو العربيّ: النّشْأة، والتّطوّر/بيْن النّحْوِ والصّرْفِ/اللّحْن/تيسير تعْليميّة النّحْو/حَدّ الإعْرابِ.

Abstract

Our roadmap focuses on the subject of: Birth of Arabic grammar and its various stages of development from the exacerbation of solecism by foreigners who converted to Islam within its scope through conquests.

Thus, we propose within the framework of the results obtained, to review in a critical way, the linguistic heritage of the Arabic language in the shadow of contemporary linguistics, by appealing to its theories and its rules which aim to simplify the didactics of Arabic grammar in the educational system in Algeria.

Keywords: Arabic grammar : Birth and development/Between morphology and grammar/Solecism/Facilitate the teaching of Arabic grammar/Notion: Analysis

مدخل

شغل التّفكيرُ في تيسير سبلِ تعليميّة النّحو العربيّ علماءَ اللّغةِ منذ القديم، وما صعوبة هذا العلْمِ إلاّ –في نظرِ أهلِ الرّأْيِ– لِعواملَ كثيرةٍ يُمكن حصرُها في اِثْنيْن منْها على سبيلِ الذِّكْرِ، ومنْ بابِ الإيجازِ، وهُما:

- اِستعانةُ الخليلِ بعلْمِ الحسابِ لِاسْتنْباطِ أُصولِ أحْكامِ النّحوِ.
- توْظيفُ المنْطِقِ في علْمِ النّحوِ العربيّ.

وإنَّ التّفكيرَ بِالمسائلِ المتعلّقَةِ بِتعْليمِ النّحوِ وتعلُّمِهِ، يُفْضي لا محالةَ إلى خدمةِ اللُّغةِ العربيّةِ وتطْويرِها؛ لِأنَّ هذِه الأخيرةَ مناطُ هُويَّةِ الأمَّةِ العربيّةِ؛ وعليْهِ، باتَ لِزامًا على المشرفينَ على درْسِ اللُّغةِ العربيّةِ الاِهْتمامُ بِالطّرائقِ المناسبَةِ لِتسْهيلِ عمليَّةِ التّعْليمِ والتّعلُّمِ، وذلكَ بِالنّظرِ إلى نِظامِ اللُّغةِ العربيّةِ الّتي تضْبِطُهُ قوانينُ وقواعِدُ تتلخَّصُ في المسْتوياتِ الأرْبعةِ (الصّوْتيّ، وَالمعْجَميّ، وَالصّرْفيّ، وَالتّركيبيّ)، معَ العِلْمِ أنَّ لِلْمُسْتوى النّحويّ المكانةَ الأُولى لِلْوصولِ إلى المعانيْ المقْصودةِ. فتعلُّمُ اللُّغةِ العربيّةِ، وَاِكْتسابُ نِظامِها مُرْتبِطٌ أشَدَّ الاِرْتباطِ بتَعلُّمِ النّحْوِ، ولِهَذا رَأيْنا تضافُرَ جُهودِ عُلَماءِ اللُّغةِ قَديمًا وَحَديثًا لِخِدْمةِ تعْليمِ اللُّغةِ العَربيّةِ وَتَعلُّمِها، الأمْرَ الَّذي نتَجَ عنْهُ ما يُسَمّى بِالدِّراساتِ النّحْويّةِ ذاتِ الأهمِيَّةِ البالِغةِ.

إذا اِسْتقْرأنا الجانِبَ التّاريخيَّ لِنشْأَةِ النّحْوِ العربيّ، لا شَكَّ أنَّ الحَديثَ يَقودُنا إلى رفْعِ السّتارِ عَنِ السّببِ الرَّئيسِ الَّذي وُضِعَ مِنْ أجلِه هَذا العلْمُ الَّذي لَخَّصهُ اِبْنُ منْظورٍ في: (لِسانِ العَربِ) في جُملتيْنِ مُقْتَضَبَتيْنِ، قائِلاً: "النّحو: إعْرابُ الكَلامِ العَربيّ، وَالنّحْوُ: القَصْدُ، وَالطّريقُ"، ولِذلِكَ سُمِّيَ نَحْوَ الكَلامِ مثْلَما أشارَ إليْهِ صاحِبُ (مِقياسِ اللُّغةِ)؛ لِأنّهُ قَصَدَ أُصولَ الكلامِ، أيْ بِعبارَةٍ أُخْرى: "اِنْتِحاءُ سَمْتِ كَلامِ العَربِ... لِيلْحَقَ مَنْ ليْسَ بِأَهْلِ اللُّغةِ العَربيّةِ بِأَهْلِها في الفَصاحةِ، فَيَنْطِقَ بِها وَإنْ لَمْ يَكُنْ منْهُمْ..." مِثْلَما وَرَدَ عَلى لِسانِ صاحِبِ (الخصائِصِ) في بَيانِ حَدِّ النّحْوِ.

فَشِياعُ اللَّحْنِ، كانَ مِن أقْربِ الأسْبابِ الّتي اِسْتدْعَتْ وَضْعَ القوانينِ الضّابِطةِ لِلُّغةِ العَربيّةِ؛ لِأنّهُ أَفْسَد اللِّسانَ العَربيَّ، وَلَوَّثَ طُهْرَ السّليقَةِ لَدَى الإنْسانِ العَربيّ في العهْدِ القَديمِ. ولِلّحْنِ، مَظاهِرُ كَثيرَةٌ، مِنْها:

- اِنْتشارُ الإسْلامِ، وَدُخولُ الأعاجِمِ فيهِ.
- تَفَشّي اللَّحْنِ عَنِ العامَّةِ، وَمِنْ ذلِكَ رِوايَةُ اِبْنةِ أبي الأسْودِ الدُّؤلِيّ.
- اللَّحْنُ في قِراءَةِ القُرْآنِ.

ويُعَدُّ العامِلُ الأخيرُ، أهمَّ أسْبابِ وَضْعِ النّحْوِ العَربيّ، فقَدْ طُلِبَ مِنْ أبي الأسْودِ الدُّؤَلِيّ بِإيعازٍ مِنَ الإمامِ عليٍّ –رَضِيَ اللهُ عنْهُ– أنِ "اِعْمَلْ شيْئًا تَكونُ فيهِ لِلنّاسِ إمامًا، وَيَنْتَفِعُ النّاسُ بِه، وتُعْرِبُ بِهِ كتابَ اللهِ". حَتّى إنَّ البعْضَ مِنْ أسْلافِنا –رَحِمهُمُ اللهُ– يَسْتغْفِرونَ إذا عَثَر لِسانُهُمْ، وَأخْطأَ الصَّوابَ لِشِدَّةِ تَخَوُّفِهِمْ مِنْ هذِهِ الظّاهِرَةِ الدَّخيلَةِ عَلى اللِّسانِ العَربيّ. فهَذا، الحسَنُ البَصْرِيُّ كانَ إذا لَحَنَ، قالَ: "أَسْتغْفِرُ اللهَ".

وَيُمْكِنُ تلْخيصُ مَراحِلِ وضْعِ النّحْوِ العربيّ مثْلَما ورَدَ على لِسانِ الطّنْطاويْ في كتابِهِ: (نشْأَةُ النَّحْوِ، وَتاريخُ أشْهرِ النُّحاةِ) في النِّقاطِ التّاليَةِ: طَوْرُ الوَضْعِ، وَطَوْرُ النُّشوءِ، وَطَوْرُ النُّضْجِ وَالكَمالِ، وَطَوْرُ التّرْجيحِ وَالبسْطِ فيْ التّصْنيفِ.

وأخيرًا، يرْتكِزُ تدخُّلُنا في خِطَّةِ العملِ البَحْثِيّ هذا، على:

- بيانِ الحُدودِ الفاصلَةِ بيْنَ عِلْمَيْ: الصّرْفِ، والنّحْوِ.
- الإشادَةُ بِجهودِ القُدماءِ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ في تيْسيرِ النّحْوِ العربيّ، وكذا جهود المحْدَثينَ، وأهمّ الكُتُبِ المؤلَّفةِ في هذا البابِ (تيْسير سُبُلِ تعْليميَّةِ النّحْوِ العربيّ).
- تَعْليميَّةُ النّحْوِ العَرَبِيّ مِنْ مَنْظورِ المقارباتِ المتَبَنّاةِ فيْ طَرائِقِ تَدْريسِ مِثْلِ هَذا اللَّوْنِ مِنْ أَنْشِطَةِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ.

1- النّحوُ العربيُّ: النّشأةُ

يُعدُّ علْمُ النّحوِ الرّكيزَةَ الأساسَةَ فيْ تعليمِ اللُّغةِ العربيّةِ وتعلُّمِها، وهو أشرَفُ علومِ اللُّغةِ العربيّةِ إلى جانبِ علْمِ الصّرْفِ؛ إلاّ أنّ هذا العلمَ أضحى يُشكِّلُ حجرَ عثْرةٍ أمامَ تحقيقِ تعليميّةِ اللُّغةِ العربيّةِ وواقِعِ الأهدافِ التّربويّةِ الّتيْ يُرادُ تجسيدُها عبْرَ جُسورِ المنظومةِ التّربويّةِ، ويُرجِعُ البعضُ مِنَ الباحثينَ فيْ العصرِ القديمِ والحديثِ صعوبتَهُ إلى قواعدِه المتداخلَةِ والمتّسِمةِ فيْ عمومِها بِطابعِ التّجريدِ، غيْرَ أنَّ البعضَ يرى أنّ صعوبتَهُ تكْمُنُ فيْ طرائقِ تدريسِهِ، وفيْ بعضِ أبوابِه الّتيْ ليسَتْ منْ شأْنِ المتعلِّمِ، فلا هي المواضيعُ مُجديَةٌ، ولا هيَ تسُدُّ حاجةَ المتعلّمِ وفضولَهُ بِحكْمِ أنّها مواضيعُ غيْرُ وظيفيَّةٍ، ولا أدلَّ على ذلِك، ما أظهرَهُ بعْضُ النُّحاةِ فيْ مسْأَلةِ تيسيرِ سُبُلِ تعليميّاتِ النّحْوِ العربيّ أمْثالَ: اِبْنِ مضاءٍ القُرطُبِيّ، وإبراهيم مُصْطفى، وشوْقيْ ضيف، ومُصْطفى صادق الرّافِعيّ، وسعيد الأفغانيّ، وغيرهمْ كثيرون...

ولِعلُوِّ مكانةِ هذا العلْمِ وشأْنِه بيْن علومِ اللُّغةِ العربيّةِ الثّلاثةَ عشَرَ ، بذَلَ النُّحاةُ جهْدًا لا يُسْتهانُ بِه لإخْراجِ مُصنّفاتٍ وكُتبٍ تَهتمُّ بِالجانبِ التّطْبيقيّ لِلنّحْوِ مثْلما صنعهُ الكِسائيُّ، والفرّاءُ، والأخْفشُ "كُتُبُ النّحْوِ التّعليميّ التّطْبيقيّ، وهيَ الكتُبُ الّتيْ اِهْتمَّتْ بِتطْبيقِ القاعدةِ النّحويّةِ على النّصوصِ اللُّغويّةِ بِمسْتوياتِها المختلِفَةِ: قُرآن، حديث، شِعْر. وقدْ أَلَّفَ فيْ هذا الفنِّ كلٌّ منَ الكِسائيّ، والفَرّاءِ، والأخْفَشِ كُتُبَهُمْ: معانيْ القُرآنِ، والزّجّاجيّ كتابَهُ: معانيْ القُرآنِ وإعْرابَهُ، وكتابَ الإبانةِ والتّفْهيمِ، ثُمّ كتُبَ المجالِسِ والأماليْ، ويُمثّلها فيْ فتْرَةِ الدّراسةِ: مجالِسُ ثعْلَبَ"[1]. فاِعْتناءُ هؤلاءِ باللُّغةِ العربيّةِ كانَ مِنْ بابِ وضْعِ مُصنّفاتٍ تَعْليميَّةٍ لِهذا الغرَضِ النّبيلِ، ولكنْ لوحظَ معَ ذلِك تردُّدُ المتعلِّمِ فيْ فهْمِ القواعِدِ: نحْوِها وصرْفِها، فصارَ لِزامًا البحْثُ عنْ المنْهجِ اليسيرِ الموصِلِ

[1] وضحة عبد الكريم جمعة الميعان. **التّأليف النّحويُّ بيْنَ التّعْليمِ والتّفسيرِ**. مكتبة دار العروبة لِلنّشرْ والتّوزيعِ. الكويت. ط1. 2007. ص 215.

إلى حصولِ هذِه الملَكةِ والتّمكُّنِ مِنْ ناصيَةِ النّحْوِ؛ لِأنّ لِلنّحْوِ أهمِّيَّةً فِيْ تَعليميّاتِ اللُّغاتِ.

وإنّنا نرى مِنْ بابٍ أوْلى قبْلَ الخَوضِ فِيْ مسْأَلةِ نشْأَةِ النّحْوِ العربيّ ووَضْعِه، أنْ نُقَدِّمَ عرْضًا وجيزًا نُحدِّدُ عبْرَ سُطورِه بعْضَ المفاهيمِ المتعلّقَةِ بِهذا المصْطلَحِ، وهذا فِيْ مُسْتوَيَيْنِ، وهما: اللُّغويّ، والاِصْطلاحيّ.

فالنّحْوُ لغةً، يَعْنِيْ القصْد، جاءَ فِيْ (مقاييسِ اللُّغةِ): "النّونُ، والحاءُ، والواو كلمةٌ تدُلُّ على قصَدَ، ونَحَوْتُ نَحْوَهُ، ولِذلِك سُمِّيَ نحْوَ الكلامِ؛ يقصِدُ أصولَ الكلامِ فيُتكلَّمُ على حسَبِ ما كانَ العرَبُ تتكلّمُ بِه، ويُقالُ إنَّ بنِيْ نَحْوٍ: قوْم مِنَ العرَبِ، وأمّا أهلُ المِنْحاةِ فقدْ قيلَ: القوْمُ البُعداءُ غيْرُ الأقارِبِ"[2]. ومِنْ معانيهِ: القصْدُ والطّريقُ عنْدَ اِبْنِ منْظورٍ: "والنّحوُ، إعْرابُ الكلامِ العربيّ. والنّحوُ، القصْدُ والطّريقُ"[3]. ويُعرّفهُ الفيْروزآباديْ على أنّهُ الطّريقُ والجهةُ بِقولِهِ: "النّحوُ، الطّريقُ والجهةُ، جمْع أنْحاء ونُحُوّ. والقصْدُ يكونُ ظرْفًا أوِ اِسْمًا، ومنْهُ نحْوُ العربيّةِ..."[4]. هذا، ويُمكِنُ الاِكْتفاءُ بِبعْضٍ مِنَ المعانِيْ الّتِيْ يَدلُّ عليْها المصْطلَحُ، وهيَ:

- ✓ شكْلٌ وطريقَةٌ، مثْلُ: تصرَّفَ على هذا النّحْوِ أوْ تصَرّفَ على نَحْوٍ لمْ يُعْهَدْ مِنْ قبْلُ.
- ✓ بِاتِّجاه، يُقالُ: صَوّبَ نظرَهُ نحْوَ النّافذَةِ أوْ نحْوَ السّماءِ أوْ نحوَ الهدَفِ.
- ✓ زُهاءَ، يُقالُ: أقْبَلَ نحْو سِتَّة آلافِ رجُلٍ أوْ مُنْذُ نحْوِ عشْرَةِ أيّامٍ.
- ✓ ظرْفٌ يدُلُّ على الجهةِ، يُقالُ: ذهَبَ نحْوَ اليسارِ.

---

[2] اِبْنُ فارس. **مقاييسُ اللُّغةِ**. تحق "عبْدُ السّلامِ هارونَ". دارُ الفكْرِ لِلطِّباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ. ج5. (د.ط). (د.ت). ص 403.

[3] اِبْنُ مَنْظورٍ. **لِسانُ العربِ**. دارُ صادِر. بيْروت/لُبْنان. مج15. (د.ت). صَ ص 309- 310.

[4] الفاكِهيّ. **شرْحُ كتابِ الحُدودِ فِيْ النّحوِ**. تحق "المتولِي رمضان أحمد الدّميري". مكْتبةُ وهْبة. القاهرة/(ج.م.ع). 1993. صَ ص 52- 53.

وأمّا النّحْوُ اِصْطلاحًا، فيقولُ صاحبُ (الخصائص): "هوَ اِنْتِحاءُ سَمْتِ كلامِ العربِ فِيْ تصرُّفِهِ منْ إعْرابٍ وغيْرِه كالتّثْنيَةِ، والجمْعِ، والتّحْقيرِ، والتّكْسيرِ، والإضافةِ، وَالنّسَبِ، وَالتّرْكيبِ وغيْرِ ذلِك، لِيلْحَقَ مَنْ ليْسَ مِنْ أهْلِ اللُّغةِ العربيّةِ بِأَهلِها فِيْ الفصاحةِ، فَيَنْطِقَ بِها وَإنْ لمْ يَكُنْ منهُمْ، وإنْ شَذَّ بَعضُهُمْ عنْها رُدَّ بِه إليْها. وهو فِيْ الأصْلِ مصْدرٌ شائعٌ، أيْ: نحَوْتُ نَحْوًا، كقَولِكَ: قَصَدْتُ قصْدًا، ثُمّ خُصَّ بِهِ اِنْتِحاءُ هذا القبيلِ مِنَ العلْمِ"[5]. يتبيَّنُ لنا منْ حدِّ النّحوِ عنْد اِبْنِ جِنّيّ، أنّهُ علْمٌ يُعْنى بِدراسَةِ الكلمةِ مِنْ وجْهةِ بِنائها، أيْ: طريقةِ صياغتِها على أوْزانٍ معْلومةٍ، وَمِنْ وِجهَةِ إعْرابِها بِحُكمِ العلائقِ الّتيْ تضْبِطُ الكلماتِ وهْيَ مُرتَّبةٌ ترْتيبًا منْطِقيًّا فِيْ مَدرَجِ الكلامِ، وَهذا ما أشارَ إليْهِ اِبْنُ السّرّاجِ، فهوَ الآخرُ لمْ يَفْصلْ بيْن علْميْ النّحوِ والصّرْفِ عندما قالَ: "النّحوُ إنّما أُريدَ بِه أنْ يَنحُوَ المتكلِّمُ تعلُّمَهُ كلامَ العرَبِ، وهوَ علْمٌ اِسْتخْرجَهُ المتقدّمونَ فيهِ مِنِ اِسْتقْراءِ كلامِ العرَبِ، حتّى وقَفُوا منْه على الغرَضِ الّذيْ قصَدَهُ المبْتدِئونَ بِهذِه اللُّغةِ، فبِاسْتقْراءِ كلامِ العرَبِ، فاِعْلَمْ: أنَّ الفاعِلَ رُفِعَ، والمفْعولَ بِهِ نُصِبَ، وأنَّ فعْلَ مِمّا عيْنُهُ ياءٌ أوْ واوٌ تُقْلَبُ عيْنُهُ منْ قولِهِمْ: قامَ، وَباعَ"[6]. وعليْهِ، فالنّحوُ علْمٌ يُعرَفُ بِهِ أحْوالُ الكلِمِ إعْرابًا وبِناءً، وهيآتُ الوحداتِ المشكِّلةِ لِلْكلِمِ بِوساطةِ التّرْكيبِ، فتَحْصُلُ الكَيْفيّاتُ المتباينةُ لِهذا التّرْكيبِ عنْدَ ترْتيبِ عناصِرِ الكلِمِ والتّصرُّفِ فيها بِالتّقْديمِ والتّأْخيرِ على نحْوٍ يتحقَّقُ بِه التّواصُلُ والتّبليغُ، والفائدةُ المرْجُوَّةُ مِنْ عمليّةِ السّبْكِ. إذنْ، فالنّحْوُ عندَ اِبْنِ جِنّيّ، هو:

- ✓ مُحاكاةُ العرَبِ فِيْ طريقةِ كلامِهِم تجَنُّبًا لِلَّحْنِ.
- ✓ تمْكينُ المسْتَعْرَبِ فِيْ أنْ يكونَ كالعربيّ فِيْ فصاحتِه، وسلامةِ لُغتِهِ عنْدَ الكلامِ.

---

[5] اِبْنُ جِنّيّ (أبو الفتْحِ عثْمان). **الخصائصُ**. تحق "محمّد عليّ النّجّار". دارُ الهُدى لِلطِّباعةِ والنّشْرِ. بيْروت/لُبْنان. ط2. ج1. (د.ت). ص 34.

[6] الفاكِهيّ. **شرْحُ كتابِ الحُدودِ فِيْ النّحوِ**. صَ ص 52- 53.

وإنّ منْ بيْنِ الأسْبابِ الّتيْ دفَعتْ إلى وضْعِ النّحْوِ لِضبْطِ اللُّغةِ العربيّةِ حتّى يَسْهُلَ على غيْرِ أهْلِ العربيّةِ الإلْتِحاقُ بِأَهلِها فيْ الفصاحةِ مثْلما عبّرَ عنْه اِبْنُ جِنّيّ، هو شُيوعُ أوْ (شِياعُ) ظاهرَةِ اللَّحْنِ (Solecism) الّتيْ أفسَدَتِ اللّسانَ العربيَّ، وشَوّهَتْ نِظامَهُ، ولوَّثَتْ سليقَةَ الإنْسانِ العربيّ، ومرَدُّ الأمرِ هو اِنْتِشارُ الإسْلامِ عنْ طريقِ الفتوحاتِ، وتوسُّعُ رُقْعةِ البلادِ العربيّةِ، ودخولُ الأعاجِمِ أفواجًا أفْواجًا إلى هذا الدّينِ الجديدِ ومُحاولةُ تعلُّمِهِمْ اللُّغةَ العربيّةَ بِالدّرجةِ الأولى. ولمْ يَزِلِ العربُ يتكلَّمونَ عربيَّتَهُمْ على سجيَّتِها وبِطلاقَةِ اللّسانِ فيْ عِزّ الجاهليَّةِ حتّى صدْرِ الإسْلامِ، إلى أنْ شَعَروا بِالخوْفِ على لُغتِهِمْ حينَ اِجْتمَعتِ الألْسِنةُ المختلِفَةُ، واللُّغاتُ المتباينةُ، واِسْتشْرَتْ عِلَّةُ الفسادِ فيْ صرْحِ اللُّغةِ العربيّةِ، وأصابَها الوهَنُ؛ حينئذٍ وبِاسْمِ هذا الحَذَرِ الشّرْعِيّ، دَعَتْهُمْ فِطنتُهُمْ إلى تَقْويمِ الفسادِ فسبَّبوا الأسْبابَ، ووضَعوا القُيودَ لِيهْتدِيَ بِها مَنْ زاغَ لِسانُهُ ولَحَنَ. أ لمْ يَرْوِ لَنا التّاريخُ حادِثَةَ اِبْنَةِ الصّحابِيّ التّابِعيّ أبيْ الأسْودِ الدُّؤَلِيّ –واضِعِ ضوابِطِ اللُّغةِ العربيّةِ– حينَ أجابَها قائلاً: "نُجومُها" رَدًّا على اِسْتفْسارِها: "ما أجْملُ (بِالرّفْعِ) السّماءِ (بِالخَفْضِ)؟" فرَدَّتْ قائلَةً: "لا يا أبتاهُ، ما كنْتُ سائلةً، ولكنْ كنتُ أتعجَّبُ". فقالَ لها: "قوليْ إذنْ: ما أجْملَ (بِالبناءِ على الفتْحِ) السّماءَ (بِالنّصْبِ)!". فلمّا حضَرَ أبو الأسْودِ بيْنَ يَديْ أميرِ المؤْمنينَ عليٍّ –رَضِيَ اللهُ عنْهُ– وأخْبرَهُ بِحادثَةِ اِبْنتِهِ، ولفَتَ نظرَهُ إلى ذهابِ اللُّغةِ العربيّةِ لِمُخالَطةِ العجَمِ لِلْعرَبِ، ما كانَ مِنْ عليٍّ إلاّ أنِ اِشْترى صُحُفًا بِدِرْهمٍ واِنْبرى يُمْليْ على أبيْ الأسْودِ كلماتٍ قلائلَ كانتِ المنطلَقَ الرّئيسَ لِوضْعِ كتابٍ يَقْرَؤُهُ النّاسُ فيَهتدونَ حينَ تَزيغُ الألْسِنةُ؛ ومِنْ جُملَةِ ما أمْلاهُ عليْهِ: "الكلامُ كلّهُ لا يَخْرُجُ عنِ اِسْمٍ وفعْلٍ وحرْفٍ جاءَ لِمعْنى... فأنْحُ هذا". وفيْ ظلِّ هذِه الكلماتِ، وفيْ صيغةِ الأمْرِ الّتيْ تَوسَّلَ بِها أميرُ المؤْمنينَ، ظهَرَ أوَّلَ مرَّةٍ مُصْطلَحُ (النّحْوِ)، مِنْ: نَحا، يَنْحو، أنْحُ، نَحْوًا.

وَهُناكَ عامِلٌ ثانٍ تدخَّلَ بِقوَّةٍ وكانَ السّببَ الرّئيسَ فيْ ظَنّنا لِوضْعِ أُسُسِ النّحوِ العربيّ، وَالمتمثِّلِ فيْ اللَّحْنِ فيْ قِراءَةِ القُرْآنِ، فاِنْبرى أبو الأسْودِ لِيضَعَ علاماتِ الشّكْلِ

بِوضْعِ نُقَطٍ فوْقَ الحرْفِ لِلْفتْحةِ، وتحْتَه لِلْكسْرةِ، وإلى جانبِه لِلضَّمّةِ. ولَمّا كانتْ حروفُ العربيّةِ مُهْملَةً كلّها، وأراد النُّحاةُ أنْ يُعْجِموها لِتمْييزِ بَعضِها مِنْ بعْضٍ، رَأَوْا أنْ يُفرّقوا بيْنَ النُّقطِ الّتيْ لِلإعْجامِ، والنُّقطِ الّتيْ لِلشّكْلِ، فجعَلوا كُلاًّ منْها بِلوْنٍ خاصٍّ. ثُمَّ تلَتْها مُحاولَةٌ تَحقَّقتْ بِوضْعِ علاماتٍ أُخَرَ تُشيرُ إلى الشّكلِ، وهيَ حروفُ مَدٍّ صغيرَةٍ: فالضّمّةُ واوٌ صغيرةٌ، والكسرَةُ ياءٌ صغيرةٌ، والفتْحةُ ألِفٌ مائلةٌ قليلاً؛ فقدْ ذكرَتْ بعضُ الرِّواياتِ أنّ عليّا –رَضِيَ اللهُ عنْهُ– اِلْتمَسَ مِنْ أبيْ الأسْودِ ضرورَةَ التّقعيدِ لِلنّحوِ العربيّ، قائلاً: "اِعْمَلْ شيئًا تكونُ فيهِ لِلنّاسِ إمامًا، ويَنْتفِعُ النّاسُ بِه، وتُعْرِبُ بِه كتابَ اللهِ". حتّى إنّ البعْضَ مِنَ السّلَفِ الصّالِح يسْتغْفِرونَ إذا عثَرَ لِسانُهُمْ، وأخْطأَ الصّوابَ لِشدَّةِ تَخوُّفِهِمْ مِنْ ظاهرَةِ اللّحْنِ فيْ قِراءَةِ القُرْآنِ، فالحسَنُ البصْرِيُّ كانَ إذا لَحَنَ، قالَ: "أسْتغْفِرُ اللهَ". فقيلَ لهُ: أ تسْتغْفِرُ اللهَ أنْ قدْ لَحَنْتَ؟ فيَرُدُّ: "مَنْ أخْطأَ فيْ لُغةِ العربِ، فقدْ كَذَبَ عليْهِمْ، ومَنْ كَذَبَ، فقدْ عَمِلَ سُوءًا، واللهُ يقولُ: **[ومَنْ يَعْمَلْ سوءًا أوْ يَظْلِمْ نفسَهُ، ثُمَّ يَسْتغْفِرِ اللهَ، يَجِدِ اللهَ غفورًا رحيمًا]**[7]". إنّ عاملَ اللّحْنِ فيْ قِراءَةِ القُرآنِ أوْجدَ ظاهرَةً تَعْمَلُ على تقْويمِ زَيْغِ اللّسانِ، وهيَ: الاِحْتِجاجُ، يقولُ عنْ هذِه المسْأَلةِ صاحِبُ (مِنْ تاريخِ النّحْوِ): "يُرادُ بالاِحْتِجاجِ هنا، إثْباتُ صِحَّةِ قاعدَةٍ أوِ اِسْتعْمالِ كلمةٍ أوْ تركيبٍ بِدليلٍ نَقْلِيٍّ صَحَّ سنَدُهُ إلى عربيٍّ فصيحٍ سليمِ السّليقَةِ"[8]، معَ اِشْتِراطِ زمَنِ مَنْ يوثَقُ بِعربيَّتِه ومكانِه فيْ الاِحْتِجاجِ.

إنّ الفضْلَ يعودُ لِأبيْ الأسْودِ الدُّؤلِيّ فيْ نشْأَةِ النّحوِ العربيّ حتّى وإنْ حامَتْ حوْلَ هذِه القضيّةِ الظّنونُ. وَمعَ ذلِك، فالمتعارَفُ عليْهِ لَدى جُمهورِ النُّحاةِ، أنّ نشْأَةَ النّحْوِ بدأَتْ متواضِعةً ومُحتشَمَةً عَلى يَدِ أبيْ الأسْودِ بِتنْقيطِه لِلْمُصْحَفِ الشّريفِ، يقولُ صاحِبُ (الطّبقاتِ): "وَكانَ أوَّلَ مَنِ اِسْتَنَّ العربيّةَ، وفتَحَ بابَها، وأنْهَجَ سبيلَها، وَوضَعَ

---

[7] سورةُ (**النّساءِ**). الآيةُ 110.

[8] سعيد الأفغانيّ. **منْ تاريخِ النّحْوِ**. دارُ الفِكرِ. (د.ط). (د.ت). ص 17.

قِياسَها، أبو الأسْودِ الدُّؤلِيّ..."[9]، وَلا أدلَّ على ذلِكَ، مِنْ كتابِ سيبَويْهِ الّذيْ أثْبتَ غيْرَ ما مرَّةٍ صِحَّةَ نَسَبِ نشْأَةِ النّحوِ لِأبيْ الأسْودِ، حينَ يتعلَّقُ الأمْرُ بِحديثِه عنْ سَندِ الرّوايَةِ فيهِ، فهو يجيئُكَ بِسِلسلَةِ الرُّواةِ حتّى يَصِلَ بِالسَندِ إلى أبيْ الأسْودِ ويَنْتهيَ عنْدَه، يقولُ أبو سعيدٍ الحسَنُ السّكّريُّ: "كتابُ سيبَويْهِ وَهْوَ بيْنَ أيْدينا وَسندُ الرّوايةِ فيهِ، فإنّهُ يَرْويْ عنِ السّابقينَ، فإذا رَوى عنْ بعْضِهِمْ فقدْ يَصِلُ بِالسّنَدِ إلى أبيْ الأسْودِ ويَنتهيْ عنْدَهُ، وَهذا يَدلُّ على أنّهُ كانَ الواضِعَ الأوَّلَ"[10]. وَيقولُ أبو سعيدٍ فيْ موْضِعٍ آخَرَ يَسْبِقُ هذا الدّليلَ الّذيْ حدَّثَنا عنْهُ: "أوَّل ما وَضَعَ أبو الأسْودِ، بابَ الفاعِلِ والمفْعولِ"[11].

تُعدُّ مسْأَلةُ نشْأَةِ النّحوِ عنْدَ الكثيرِ مِنَ العُلماءِ وَالباحثينَ غامِضةً غُموضًا بَيّنًا؛ لِأنّهُ ليْسَ مِنَ المنْطِقِ أنْ يَظهَرَ كتابٌ فيْ النّحوِ ضَخْمٌ مِنْ غيْرِ أنْ تَسْبِقَهُ مُحاولاتٌ تَمهيديَّةٌ، وَهذا ما أشارَ إليْهِ أحْمد أمين بِقولِهِ: "تاريخُ النّحْوِ فيْ مَنشَئِهِ غامِضٌ كُلَّ الغُموضِ، فإنّا نرى فجْأَةً كتابًا ضَخمًا هُو كتابُ سيبَويْهِ، وَلا ترى قبْلَه ما يَصِحُّ أنْ يكونَ نواةً تُبيّنُ ما هُو سُنّةٌ طبيعِيَّةٌ مِنْ نشوءٍ وَارْتِقاءٍ، وَكلُّ ما ذَكروهُ مِنْ هَذا القبيلِ لا يُشْفيْ غليلاً"[12]. إنّ ما يُمكِنُ قوْلُه فيْ هَذا البابِ، إنّ نشْأَةَ النّحوِ بِأُصولِه المتقَدّمةِ وَالمتطوّرَةِ كانتْ عَلى يَدِ اِبْنِ أبيْ إسْحاق، وَقبْلَه كانتْ عَلى يَدِ سيبَويْهِ حينَ يتعلَّقُ الأمْرُ بِمفْهومِ القِياسِ، وَقبْلَهُ كانتْ تِلْكَ الجهودَ المتواضِعةَ وَالمتمثّلةَ فيْ المحاولاتِ التّمْهيديّةِ لِنشْأَةِ النّحوِ الّتيْ ظهرَتْ عَلى يَدِ أبيْ الأسْودِ الدُّؤلِيّ.

---

[9] محمّد الطّنطاويْ. **نشْأَةُ النّحْوِ، وتاريخُ أشْهرِ النُّحاةِ**. دارُ المعارِفِ. القاهرة/(ج.م.ع). ط2. (د.ت). صَ ص 32- 33.

[10] أبو سعيد الحسَن السّكّري. **ديوانُ أبيْ الأسْوَدِ الدُّؤَلِيّ**. تحق "محمّد حسَن آل ياسين". دارُ ومكْتبةُ الهلالِ لِلطّباعةِ والنّشْرِ. بيْروت/لُبْنان. ط2. 1998. ص 22.

[11] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 20.

[12] عبْدُ الحسين محمّد الفتْلي وآخرونَ. **تاريخُ العربيّةِ**. مؤسّسَةُ دارِ الكتُبِ لِلطّباعةِ والنّشْرِ. (د.ط). (د.ت). ص 7.

إنَّ القِراءَةَ الواعِيَةَ وَالنّقْدِيَّةَ لِلظُّروفِ وَالملابَساتِ الَّتِيْ أفْضَتْ إلى حُصولِ جَوٍّ اِجْتِماعِيٍّ عامٍّ فِيْ شِبْهِ الجَزيرَةِ العَرَبِيَّةِ فِيْ بُعْدَيْهِ: الدِّينِيِّ وَالثَّقافِيِّ، وَالَّذِيْ كانَ السَّبَبَ فِيْ ميلادِ النّحْوِ العَرَبِيِّ تَحْتَ وَطْأَةِ حاجَةِ المسْلِمينَ المسْتَعْجلَةِ إلى عُلومٍ لِلّسانِ العرَبِيِّ تَضْبِطُها أَحْكامٌ وَقَواعِدُ تَضْمَنُ سَلامَةَ النَّصِّ القُرْآنِيِّ، وَتُحَقِّقُ لَهُ الأَداءَ وَالفَهْمَ السَّليمَيْنِ فِيْ بيئَةٍ اِسْتشْرى فيها اللَّحْنُ جَرّاءَ اِخْتِلاطِ العَرَبِ بِغَيْرِهِمْ، وَدُخولِ النّاسِ أَفْواجًا أَفْواجا فِيْ الدِّينِ الجَديدِ، قُلْنا إنَّ القِراءَةَ الواعِيَةَ تَفْرِضُ عَلَيْنا كَباحِثينَ الاِهْتِمامَ بِمِثْلِ تِلْكَ الاِعْتِباراتِ الَّتِيْ تَحْتاجُ إلى نَظَرٍ وَمَزيدٍ مِنَ التّحْديدِ وَالتَّوْضيحِ كُلَّما أَثَرْنا مَسْأَلَةَ نَشْأَةِ النّحْوِ العرَبِيِّ، لِتُحَقِّقَ نَظْرَتُنا هَذِهِ مِصْداقِيَّتَها حينَ نَضَعُ النَّشْأَةَ فِيْ إطارِها العَقَدِيِّ وَالمنْهَجِيِّ، تِلْكَ النَّشْأَةَ المتَرْجَمَةَ لِلْواقِعِ اللُّغَوِيِّ بِحَسَبِ نَظَرِ القُدماءِ "إلى مَزيدٍ مِنَ التّحْديدِ وَالتّوْضيحِ وَالضَّبْطِ؛ لأَنَّهُ لا يَجوزُ أَنْ نُجازِفَ بِإصْدارِ الأَحْكامِ عَلى نَظَرِ القُدَماءِ فِيْ الواقِعِ اللُّغَوِيِّ دونَ التَّمَكُّنِ مِنَ الإطارِ العَقَدِيِّ وَالمنْهَجِيِّ الَّذِيْ ظَهَرَ فيهِ هَذا النّحْوُ؛ لأَنَّ نُشوءَ أَيِّ بَحْثٍ يَجِبُ أَنْ يَتِمَّ فِيْ إطارِ مَشْروعٍ ثَقافِيٍّ عِلْمِيٍّ مُتَكامِلٍ"[13]. وَبِالفِعْلِ، لا يُمْكِنُ لِلْباحِثِ الجَريءِ أَنْ يَسْتَوْعِبَ التّجْرِبَةَ النّحْوِيَّةَ العَرَبِيَّةَ دِراسَةً وَتَمْحيصًا، وَتَحْليلاً وَنَقْدًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْبِطَها بِالتَّوَجُّهِ الإسْلامِيِّ، وَبِالذِّهْنِيَّةِ الَّتِيْ اِصْطَبَغَتْ فُسَيْفِساؤُها بِمَعالِمِ الثَّقافَةِ العَرَبِيَّةِ السَّائدَةِ فِيْ تِلْكَ المرْحلَةِ المسْتَهْدَفَةِ مِنَ الملاحَظَةِ وَالتّجْرِبَةِ لِلْوُقوفِ بِصِدْقٍ عَلى الاِعْتِباراتِ الدَّقيقَةِ وَالمحَدَّدَةِ، وَالظُّروفِ الَّتِيْ أَدَّتْ إلى هَذِهِ النَّشْأَةِ مِنْ حَوافِزَ نَفْسِيَّةٍ، وَاِجْتِماعِيَّةٍ، وَدِينِيَّةٍ، وَحَضارِيَّةٍ، وَثَقافِيَّةٍ..."إنَّ كَثيرًا مِنَ الدَّارِسينَ اِهْتَمَّ بِأَثَرِ الواقِعِ القُرْآنِيِّ عَلى هَذِهِ الدِّراساتِ، لَكِنْ جُمْلَةُ هَؤلاءِ الدَّارِسينَ أَغْفَلوا ما يَكونُ قَدْ عَلِقَ بِهَذِهِ الدِّراساتِ مِنْ آثارِ ظُهورِ الحَدَثِ العَظيمِ بِدونِ شَكٍّ، أيْ ظُهورِ النُّبُوَّةِ فِيْ شعبِ العَرَبِ. نَحْنُ اليَوْمَ، نَدْرُسُ ظاهِرَةَ النُّبُوَّةِ وَظُهورَها فِيْ الحِجازِ بِشَيْءٍ مِنَ المَوْضوعِيَّةِ وَالهُدوءِ، وَنَسْتَعْظِمُ مَعَ ذلِكَ الاِنْقِلابَ الَّذِيْ أَحْدَثَتْهُ فِيْ

---

[13] حافِظ إسْماعيل علَوي، وَالمحَمّدْ الملاخ. **قَضايا اِبْسْتِمولوجِيّةٌ فِيْ اللِّسانِيّاتِ**. الدّارُ العَرَبِيَّةُ لِلْعُلومِ ناشِرون. بَيْروتُ/لُبْنانُ. ط1. 2009م. ص 219.

بِقاعٍ مِنَ العالَمِ مِنَ النّاحيَةِ التّاريخِيَّةِ وَالاِجْتِماعِيَّةِ، وَلَكِنَّنا نَتَناسى الآثارَ البسيكوسوسيولوجِيَّةَ الَّتِيْ تَكونُ قَدْ تَرَكَتْها فِيْ المجْتَمَعِ الناشئ"[14]. إنَّ نَظْرَةَ الشُّذوذِ الَّتِيْ أَبْداها بَعْضُ الباحِثينَ مِنَ العَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ المسْتَشْرِقينَ إزاءَ تَأَثُّرِ النّحْوِ العَرَبِيّ فِيْ نَشْأَتِهِ وَبِنائِهِ بِالثَّقافاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، اِنْطَلَقَ أُوارُها فِيْ نَظَرِ هَؤلاءِ مِنْ كَوْنِ هَذِه الاِنْتِفاضَةِ العِلْمِيَّةِ السَّريعَةِ الَّتِيْ هَيَّأَتِ الأَرْضِيَّةَ لِنَشْأَةِ النَّحْوِ العَرَبِيّ، غَيْرَ مَعْقولَةٍ وَغَيْرَ مَنْطِقِيَّةٍ فِيْ قِيامِ صَرْحِ عُلومِ العَرَبِيَّةِ عامَّةً وَالنَّحْوِ عَلى وَجْهٍ أَخَصَّ فِيْ فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ وَجيزَةٍ إذا ما نَظَرْنا إلى المراحِلِ الَّتِيْ تَقْطَعُها العُلومُ وَالفُنونُ وَالَّتِيْ تُفَجِّرُها عُقولُ البَشَرِ عَلى اِمْتِدادِ خَطِّ الزَّمَنِ.

عَوْدٌ عَلى بَدْءٍ، فَإنَّ القِراءَةَ الواعِيَةَ الَّتِيْ أَشَرْنا إلَيْها قَبْلَ قَليلٍ، تَعْمَلُ عَلى تَفْنيدِ نَظْرَةِ الشُّذوذِ هَذِهِ القائلَةِ بِتَأَثُّرِ النّحْوِ العَرَبِيّ بِالثَّقافَةِ الهِنْدِيَّةِ وَاليونانِيَّةِ وَالسُّرْيانِيَّةِ؛ لأَنَّ النّحْوَ العرَبِيَّ فِيْ نَشْأَتِهِ، وُلِدَ وَتَرَعْرَعَ فِيْ بيئَةٍ عَرَبِيَّةٍ خالِصَةٍ: فَهُوَ اِبْنُ البَصْرَةِ بِالعِراقِ، واِبْنُ مَجالِسِها العِلْمِيَّةِ لَدَى الخُلَفاءِ بَعيدًا عَنْ ضَوْضاءِ السِّياسَةِ، وَاِبْنُ زَمَنٍ خَلَتْ أَيّامُهُ مِنْ دَوَرانِ رِوايَةٍ واحِدَةٍ عَلى الأَقَلِّ تَكونُ صَحيحَةً يوحِيْ مَضْمونُها بِتَأَثُّرِ واضِعِيّ النَّحْوِ الأَوائلِ أَمْثالَ أَبِيْ الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيّ وَغَيْرِهِ بِالثَّقافاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، وَاِبْنُ مَجْموعَةٍ مِنْ عُلماءِ العرَبِيَّةِ كانوا فِيْ عِلْمِهِمْ وَثَقافَتِهِمْ عَرَبًا أَقْحاحًا، ما اِدَّخَروا جُهْدًا إلى جانِبِ عِلْمِهِمُ الواسِعِ وَالوَفيرِ فِيْ اِسْتِقْراءِ النُّصوصِ وَاِسْتِنْطاقِها، وَتَجْريدِ دَوالِها، وَتَوْظيفِ القِياسِ، وَتَبَنِّيْ أَبْجَدِيّاتِ التّأْويلِ وَالتّفْسيرِ والبَرْهَنَةِ عَلى صِحَّةِ تَخْريجاتِهِمْ وَنَظَرِيّاتِهِمْ، وَصِدْقِ آرائِهِمْ فِيْ القَضايا اللُّغَوِيَّةِ بِوجْهٍ عامٍّ، وَالمسائلِ النحْوِيّةِ بِوجْهٍ خاصٍّ.

إنَّ الجيلَ الأَوَّلَ مِنْ واضِعِيّ النّحْوِ العرَبِيّ وَالمتَشَبِّعِ بِالمقاييسِ العلْميَّةِ الواجِبِ تَوافُرُها فِيْ الباحِثِ فِيْ شَتَّى الميادِينِ العلْميَّةِ، تَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يُؤَسِّسَ لِعلْمٍ جَديدٍ لَهُ منْهَجُهُ المناسِبُ، وَمُصْطلَحاتُهُ الدَّقيقَةُ فِيْ ظِلِّ المدَوَّنَةِ المضْبوطَةِ زَمانًا وَمَكانًا، وَاِسْتَطاعَ بِفضْلِ الجُهودِ المضْنيَّةِ أَنْ يُرْسِيَ دَعائمَ النّظرِيَّةِ اللُّغَويَّةِ المتَكاملَةِ وَالشّاملَةِ، وَالَّتِيْ بَرَزَتْ ثِمارُها

[14] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 218.

لِلْعيانِ فِيْ (الكِتابِ) لِسيبَوَيْهِ. فَلا يُعْقَلُ -وَنَحْنُ نَدْرُسُ طَبيعَةَ مَنْشَأ النّحْوِ العَرَبِيّ- أَنْ يَظْهَرَ إلى الوُجودِ بِهَذِهِ القُوَّةِ وَالمتانَةِ لَوْلا نُشوءُ حَرَكَةٍ ثَقافِيَّةٍ وَعلْمِيَّةٍ تَجَسَّدَتْ فِيْ الاِهْتِمامِ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ قِراءَةً وَدِراسَةً وَتَفْسيرًا، رافَقَتْ ميلادَهُ وَعَزَّزَتْ ظُهُورَهَ وَانْتِشارَهُ...

2- النّحوُ العربيُّ: التّطوُّرُ

شهِدَ تطوُّرُ النّحوِ العربيّ مثْلما ذهبَ إليْهِ مُحمّد الطّنْطاويْ، أرْبَعَ فتْراتٍ مُتباينةٍ، لخَّصَها فِيْ المؤشّراتِ التّاليةِ:

- طَورُ الوَضْعِ، وَالتّكوينِ (تُجسّدُهُ جهودُ المدرسَةِ البصْرِيَّةِ).
- طوْرُ النُّشوءِ، وَالنُّمُوّ (تضافُرُ جهودِ المدرسَتيْنِ: البصْريَّةِ، وَالكوفيَّةِ).
- طوْرُ النُّضْجِ، وَالكمالِ (تكامُلُ جهودِ المدرسَتيْنِ: البصْريَّةِ، وَالكوفيَّةِ).

طوْرُ التّرْجيحِ، وَالبسْطِ فِيْ التّصْنيفِ (إضافاتُ كُلٍّ مِنَ المدْرسَةِ: البغْداديَّةِ، وَالأنْدلُسيَّةِ، وَالمِصْرِيَّةِ، وَالشّاميَةِ).

1.2 طوْرُ الوضْعِ، وَالتّكْوين:

لا يَخفى على دارِسٍ أوْ باحثٍ، أنّ المدرسَةَ البصْرِيَّةَ ظهرَتْ بِقرْنٍ مِنَ الزّمنِ قبْلَ ظهورِ المدرسَةِ الكوفيّةِ، وَهذا لِارْتِباطِ الأخيرَةِ بِقيامِ الدّولَةِ العبّاسيَّةِ، وَاِهْتِمامِ رُوّادِها بِالأَشْعارِ. وَعليْهِ، فَقدِ اِشْتغَلَ نُحاةُ البصْرَةِ على النّحوِ وَمسائلِه رَدْحًا مِنَ الزّمنِ، فَكانَ الطّورُ الأوّلُ بصْرِيًّا خالِصًا، اِبْتدأَ بأَبِيْ الأسْودِ الدُّؤلِيّ إلى غايةِ ظهورِ طبقتيْنِ نَحْوِيَّتَيْنِ، عمِلَتِ الأولى عَلى اِسْتخلاصِ الكثيرِ مِنَ الأحكامِ عنْ طريقِ السّماعِ، وَكانَ على رأْسِها نصْرٌ بنُ عاصِمٍ اللَّيْثِيُّ، وَعبْدُ الرّحمنِ بنُ هُرْمُزٍ. فِيْ حينٍ، كانتِ الطّبقةُ الثّانيَةُ أقْوى عَددا، وَأكْثرَ مَيْلا إلى تَبَنّيْ القِياسِ، فكثُرتِ المباحثُ عَلى يَدِ نُحاتِها، وَمَنحَتِ النّحوَ أبْوابًا أُخرى مِنَ القواعِدِ، وَعمِلتْ على اِسْتقْراءِ النُّصوصِ، وَتدْوينِ بعْضِ الكتُبِ؛ وَأَشْهرُ مَنْ ميَّزَ هذِه الطّبقَةَ: أبو إسْحاق الحَضْرَميُّ، وَعيسى بْنُ عَمْرٍو الثّقَفِيُّ صاحبُ

الكِتابيْنِ النّحْوِيَّيْنِ: (الجامِعُ) وَ(الكامِلُ)، وَأبو عَمْرٍو بْنُ العلاءِ صاحبُ التّصانيفِ الكثيرَةِ. وَفِيْ أحضانِ الطّبقةِ الثّانيةِ، ظهرَتْ فِكرةُ التّعليلِ، فَكانَ اِبْنُ أبيْ إسْحاق أوّلَ مَنْ توجَّهَ إلى هذِه الفِكرَةِ، فنشِطَ عَلى يَدِه القِياسُ.

2.2 طوْرُ النّشوءِ، وَالنُّمُوِ:

تلاحمَتْ إبّانَ هذِه الفَّترَةِ جهودُ كلٍّ مِنَ المدْرستيْنِ: البصْريَّةِ وَالكوفيَّةِ لِلنُّهوضِ بِالنّحوِ العربيّ، فقَوِيَ التّنافُسُ بيْنهُما وَاِشْتَدَّ، يقولُ الطّنْطاويْ: "وَهَذا الطّوْرُ مِنْ عهْدِ الخليلِ بْنِ أحمَدَ البصْرِيّ، وأبيْ جعْفرَ محمَّدٍ بْنِ الحسَنِ الرُّؤاسِيّ، إلى أوّلِ عصْرِ المازِنِيّ البصْرِيّ، وَاِبْنِ السِّكّيتِ الكوفِيّ"[15]. وَقدْ عرَضَ نُحاةُ المدرستيْنِ كلَّ المسائلِ فيْ كتُبِهِمْ مِنْ: نحْوٍ، وَصرْفٍ، وَلغَةٍ، وَأدَبٍ... بِشكْلٍ فيهِ تداخُلٌ كبيرٌ بيْنَ هذِه العلومِ، فَكانَ الأديبُ لُغويًّا، وَنحْوِيًّا، وَصرْفيًّا؛ فقَدْ جمَع الخليلُ فيْ كتابِه (العَيْن) بيْنَ النّحْوِ وَاللُّغةِ، وَمزجَ سيبَويْهِ فيْ (الكتاب) بيْنَ المسائلِ الصّرفيَّةِ، وَالقضايا النّحويَّةِ: "ظهَرَتْ مباحِثُ الصّرْفِ فيْ طيِّ كتُبِ النّحوِ، وَشغَلَتْ منْها فراغًا، وَعمَّ الأمريْنِ اِسْمُ النّحوِ. وَاِسْتمرَّ هَذا الإنْدِماجُ طويلاً مِنَ الزّمنِ... وَلِذا عرَّفَ بعْضُهُمُ النّحوَ، بِأَنّهُ علْمٌ يُعرَفُ بِه أحْوالُ الكَلِمِ العربيَّةِ إفْرادًا وَتركيبًا لِيشْمَلَ الأمريْنِ"[16].

قطَع النّحوُ فيْ رِحابِ هَذا الطّورِ شوْطًا كبيرًا عنْ طريقِ تبَنّيْ ظاهرَتيْ: الجمْعِ وَالتّقَصّيْ، وَحقّقَ النّحوُ ذِرْوَةَ نجاحِهِ عَلى يَدِ صاحبِ (العَيْنِ): "ساعدَ الخليلَ عَلى أنْ يَمْضِيَ بهذِهِ الدِراسَةِ شوْطًا بعيدًا فيْ النُّضْجِ وَالإكْتِمالِ ما تيسَّرَ لهُ وَلِمُعاصريهِ مِنْ مصادِرَ لُغويَّةٍ مَنْقولةٍ مِنْ شِعرٍ وَخُطَبٍ وَأمْثالٍ، وَمِنْ مصادِرَ حيَّةٍ حيْثُ كانتْ بَواديْ نَجْدٍ وَالحجازِ وَتِهامةَ تَحْفَلُ بِها"[17]. وَقدِ اِهْتمَّ الكوفيُّونَ بِالصّرْفِ وَعَلى رأْسِهِمْ الرُّؤاسِيُّ شيْخُ هذِه الطّبقةِ، وَسَبقُوا البصْرِيّينَ فيْ الكثيرِ مِنَ القَواعِدِ الصّرفيَّةِ حتّى عَدَّ بعْضُ أهْلِ

---

[15] محمّد الطّنْطاويْ. **نشْأَةُ النّحْوِ**، وتاريخُ أشْهرِ النُّحاةِ. ص 40.

[16] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 41.

[17] مهْديْ المخْزوميْ. **فيْ النّحْوِ العربيّ، نقْدٌ وتوْجيهٌ**. دارُ الرّائدِ العربيّ. بيْروت/لُبْنان. ط2. 1986. ص 14.

البصَرِ الكوفيّينَ واضِعيّ الصّرْفِ. وَقدِ اِشْتدَّ التّنافُسُ بيْنَ المدرستيْنِ، وَحاولَ الكوفيُّونَ اِسْتدراكَ ما فاتَهُمْ مِنْ مباحثِ النّحْوِ بِحُكمِ ظهورِهِمُ المتأَخّرِ، فَأَنْشأَ الكِسائيُّ جبْهةً قويَّةً تَصْمُد فيْ وجْهِ نُحاةِ البصْرَةِ بِحُكمِ وَلائهِ لأُمراءِ الدّولةِ العبّاسيَّةِ وَخُلفائها، فَكانَ الأَخْفشُ يُصنّفُ، وَالفرّاءُ يَعْمَلُ عَلى نشْرِ العلْمِ: "فسَطَعَ فيْ سماءِ البصْرةِ نجومٌ مُتألّقةٌ تألّفَ منْها عِقْدُ الطّبقةِ الرّابعةِ بزعامةِ سيبَويْهِ الّذيْ وُهِبَ ملكةَ التّصْنيفِ وَالتّنسيقِ، فأَبْدعَ كتابَهُ عَلى مِثالٍ لمْ يُسْبَقْ إليْهِ، وَلمْ يَدَعْ لِلْمُتأَخّرينَ اِسْتدْراكًا عليْهِ، وَكانَ يُعاصِرُها الطّبقةُ الثّانيَةُ الكوفيَّةُ الّتيْ كانَ يَقودُها الكِسائيُّ الّذيْ لمْ يَأْلُ جُهْدًا حَتّى أخرَجَ لِلنّاسِ مُؤلّفاتٍ اِسْتفادوا منْها"[18].

3.2 طوْرُ النُّضْجِ، وَالكمالِ:

لقدْ هيّأَ الطّوْرُ السّابِقُ الأَسْبابَ المنْطِقيَّةَ لِاكْتِمالِ النّحوِ ونُضْجِه فيْ الطّوْرِ الثّالثِ الّذيْ يبْدأُ مِنْ جهودِ أبيْ عُثْمانَ المازِنيّ البصْريّ: "هذا الطّوْرُ مِنْ عهْدِ أبيْ عُثْمانَ المازِنيّ البصْريّ إمامِ الطّبقةِ السّادسَةِ، ويَعْقوبَ بْنِ السِّكّيتِ الكوفيّ إمامِ الرّابعةِ، إلى آخِرِ عصْرِ المبَرّدِ البصْريّ شيْخِ السّابعةِ، وَثعْلبَ الكوفيّ شيْخِ الخامسَةِ"[19].

4.2 طوْرُ التّرْجيحِ، وَالبسْطِ فيْ التّصنيفِ:

اِشتدَّ التّنافُسُ فيْ هذا الطّوْرِ، وَطبعتْهُ المناظراتُ الكثيرَةُ بيْنَ شيوخِ البصْرةِ وَالكوفةِ فيْ بغْدادَ، وَكانَ كلُّ فريقٍ منْهما يتعصَّبُ لِآراءِ مذْهبِه وَمُرتكزاتِهِ. وَلكنْ، بِمُرورِ الوقتِ وَكثْرةِ النّشاطِ العلْميّ، عمِلَ الزّمنُ على إزالَةِ ملامِحِ الضّغينةِ بيْنَ نُحاةِ المدْرسَتيْنِ، وَتوْجيهِ جهودِهِمْ نحْوَ اِسْتكْمالِ وَضْعِ المصطلحاتِ، وَتبسيطِ التّعاريفِ، وَاِخْتِصارِ ما يَنْبغيْ: "وَشرَحوا مُجْمَلَ كلامِهِمْ، واِخْتصروا ما يَنبغيْ، وَبسَّطوا ما يَسْتحقُّ، وَهذَّبوا التّعْريفاتِ، وَأَكْمَلوا وَضْعَ الاِصْطلاحاتِ، وَلمْ يَدَعوا شيْئًا منْهُ إلاَّ نَظَّروهُ، وَلا أمرًا مِنْ

---

[18] محمّد الطّنطاويْ. **نشْأَةُ النّحْوِ، وتاريخُ أشْهرِ النُّحاةِ**. صَ ص 43- 44.

[19] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 46.

غيْرِهِ إلاَّ فصَّلوهُ، فخلُصَ النّحوُ مِنَ الصّرْفِ الّذيْ بَقِيَ وَحْدَه مُتمَسَّكًا بِهِ فيْ التّأْليفِ إلى أوَّلِ هَذا الطّوْرِ"[20]. فأوَّلُ ما ظَهرَ مِنْ كتُبِ الصّرْفِ، كتابٌ لِلْمازِنيّ أسْماهُ (التَّصْريفَ)، فَكانَ المولودُ الجديدُ بدايَةَ عهْدٍ لِلطّلاقِ البائنِ بيْنَ علْميْ: النّحْوِ وَالصّرْفِ. وَطبْعًا، فيْ ظلِّ الوضْعِ الجديدِ لِانْفصالِ العلْميْنِ، لا زالَ فريقٌ مِنَ النُّحاةِ يَجمعُ فيْ تأْليفِه بيْنَ العلْميْنِ، حتّى إنَّ بعضَهُمْ مَنْ جمَعَ بيْنَ علومِ اللُّغةِ مثْلَما فعَلَهُ المبَرّدِ فيْ (الكامِلِ). وَكانتِ الدِّراساتُ العلْميّةُ، وَالنّشاطُ البحثِيُّ فيْ تزايُدٍ مُسْتمِرٍّ، فَما إنْ كانَ يَنتهيْ هَذا الطّوْرُ، حتّى تمَّتْ أُصولُ هَذا العلْمِ فيْ الحاضِرتيْنِ: البَصْرَةِ وَالكوفَةِ، وَحَتّى بَغْدادَ: "وَانْتهى الاِجْتِهادُ فيهِ بيْنَ الفريقيْنِ عَلى يَدِ الإماميْنِ: المبَرّدِ خاتِمِ البصْرِيّينَ، وَثعْلبَ خاتِمِ الكوفِيّينَ"[21].

3– الظّاهرَةُ النّحْوِيّةُ

إذا ما رَجَعْنا إلى مُخْتلِفِ التّعاريفِ المتعَلِّقَةِ بِمُصْطلَحِ (النّحْوِ)، أَلْفَيْنا أَنَّ أَبْرَزَ حَدٍّ وَأَظْهَرَ فيْ الدَّرْسِ العَرَبِيّ، هُوَ تَعْريفُ اِبْنِ جِنّيٍّ الَّذِيْ يُؤَكِّدُ فيهِ أَنَّ النّحْوَ يَشْمَلُ كُلَّ ما لَهُ صِلَةٌ بِاللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، فَهُوَ المتَرْجِمُ الحَقِيقِيُّ لِسِماتِها وَخَصائصِها المتَمَيِّزَةِ: "اِنْتِحاءُ سَمْتِ كلامِ العَرَبِ فيْ تَصَرُّفِهِ مِنْ إعْرابٍ وَغَيْرِهِ كالتَّثْنِيَةِ، وَالجَمْعِ، وَالتّحْقيرِ، وَالتّنْكيرِ، وَالنّسَبِ، والتّرْكيبِ وَغيْرِ ذلِكَ..."[22]، فَلَمْ يَقْتَصِرْ هَذا التّعْريفُ علَى سِمَةِ الإعْرابِ، بَلْ مَسَحَ جَميعَ سِماتِ العَرَبِيَّةِ الأُخْرى كَمَفْهومِ العَدَدِ، وبابِ التَّصْغيرِ وَالتّحْقيرِ، وَأَمْثِلَةِ (الأَوْزانِ) التّكْسيرِ، وَأَشْكالِ التّرْكيبِ وَغَيْرِها مِنَ السِّماتِ. بِدَليلِ أَنَّ عُلماءَ العرَبِيَّةِ، أَطْلَقُوا مُصْطلَحَ (عِلْمِ العَرَبِيَّةِ) عَلى النّحْوِ حَتَّى لا يُفْهَمَ مِنْهُ اِقْتِصارُهُ عَلى ظاهِرَةِ الإعْرابِ؛ وَإِنَّما أَكَّدَ عُلماءُ العَرَبِيَّةِ ظاهِرَةَ (الإعْرابِ) فيْ النّحْوِ مِنْ بابِ كَوْنِهِ ميزَةً لَفْظِيَّةً لِلتَّرْكيبِ النّحْوِيّ، تَعْكِسُ بِوُضوحٍ وَبِشَكْلٍ قَوِيٍّ عَلاقاتِ التّرْكيبِ.

---

[20] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 47.

[21] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 48.

[22] اِبْنُ جِنّيٍ (أَبو الفَتْحِ عُثْمانُ). **الخَصائصُ**. ج1. ص 34.

إنَّ مُقابلَةَ النّحْوِ بِالإعْرابِ أَوْ بِالعَرَبِيَّةِ، تُحيلُنا إلى ضَرورَةِ إعادَةِ النّظْرَةِ النَّاقِدَةِ وَالتّقْييمِيَّةِ لِمَفْهومِ النّحْوِ فِيْ تُراثِنا التّليدِ. فإذَا كانَ النّحْوُ مُرادِفًا لِلإعْرابِ لِتَأْكيدِ أَبْرَزِ جَوانِبِهِ، وَإذا كانَ النّحْوُ مُرادِفًا لِلْعَرَبِيَّةِ لِتَأكيدِ مَرْتَبَتِهِ بَيْنَ عُلومِ العَرَبِيَّةِ، وَبيانِ عُلُوِّ شَأْنِهِ، فَإنَّ مُصْطَلَحَ (العَرَبِيَّةِ) –فِيْ نَظَرِنا– يُعيدُ التَّوازُنَ الحَقِيقِيَّ وَالطَّبيعِيَّ لِلنَّحْوِ بِاعْتِبارِهِ عِلْمَ العَرَبِيَّةِ مِنْ بابِ أَنَّهُ ذو قيمَةٍ، وَذُو أَهَمِّيَّةٍ كَغَيْرِهِ مِنَ العُلومِ الأُخْرى لِلْعَرَبِيَّةِ لِما يُسْديهِ مِنْ خِدْمَةٍ جَليلَةٍ لَها جَميعًا؛ فَالإعْرابُ لَيْسَ عَلَمًا عَلى النّحْوِ كُلِّهِ مِثْلَما عَكَسَهُ التَّصَوُّرُ التُّراثِيُّ لِلظّاهِرَةِ النّحْوِيَّةِ. وَالمادَّةُ النّحْوِيَّةُ الَّتِيْ قَدَّمَها النُّحاةُ، وَاعْتَنَوْا بِها تَرْتيبًا وَضَبْطًا، لَدَليلٌ واضِحٌ عَلى أَنَّهُمْ تَمَكَّنُوا مِنَ الإلْمامِ بِكُلِّ السِّماتِ اللُّغَوِيَّةِ وَغَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِيْ تَتَحَقَّقُ بِوَساطَتِها عَمَلِيَّةُ التَّواصُلِ اللُّغَوِيِّ بِما فِيها وَظيفَةُ العَلاَمَةِ الإعْرابِيَّةِ.

إنَّ حُضورَ بَعْضِ سِماتِ العَرَبِيَّةِ، مِثْلُ: الرُّتْبَةِ وَالمعْنى، وَالعَدَدِ، وَالإشارَةِ، وَالحالِ... يُغْنِيْ –لاَ مَحالَةَ– عَنِ الإعْرابِ فِيْ بَيانِ المعْنى النّحْوِيِّ: "بابُ القَوْلِ عَلى الإعْرابِ، هُوَ الإبانَةُ عَنِ المعانِيْ بِالأَلْفاظِ، أ لاَ تَرَى أَنَّكَ إذَا سَمِعْتَ: أَكْرَمَ سَعيدٌ أَباهُ، وَشَكَرَ سَعيدًا أَبوهُ، عَلِمْتَ بِرَفْعِ أَحَدِهِما وَنَصْبِ الآخَرِ الفاعِلَ مِنَ المفْعولِ، وَلَوْ كانَ الكَلامُ شَرجا واحِدًا لاِسْتَبْهَمَ أَحَدُهُما مِنْ صاحِبِهِ، فَإنْ قُلْتَ: فَقَدْ تَقولُ ضَرَبَ يَحْيى بُشْرى، فَلا تَجِدُ هُناكَ إعْرابًا فاصِلاً، وَكَذلِكَ نَحْوهُ. قيلَ: إذَا اِتَّفَقَ ما هَذِهِ سَبيلُهُ مِمَّا يَخْفى فِيْ اللَّفْظِ حالُهُ، أَلْزَمَ الكَلامُ مِنْ تَقْديمِ الفاعِلِ وَتَأْخيرِ المفْعولِ ما يَقومُ مَقامَ بَيانِ الإعْرابِ. فَإنْ كانَتْ هُناكَ دلاَلَةٌ أُخْرى مِنْ قِبَلِ المعْنى، وَقَعَ التَّصَرُّفُ فيهِ بِالتَّقْديمِ وَالتَّأخيرِ، نَحْوُ: أَكَلَ يَحْيى كُمّثْرى، لَكَ أَنْ تُقَدِّمَ وَأَنْ تُؤَخِّرَ كَيْفَ شِئْتَ..."[23].

4– ما يُميّزُ النّحوَ العلْميَّ مِنَ النّحْوِ التّعْليميّ

بِما أنّ النّحوَ هو مجْموعُ القواعدِ وَالتّعْميماتِ الّتِيْ توصّلتْ إليْها التّحرّياتُ الميْدانيّةُ اللُّغويّةُ فِيْ ظلِّ المدوَّنةِ اللُّغويّةِ الّتِيْ أشرَفَ على جمْعِ مادَّتِها العلماءُ مِنَ اللُّغويّينَ

[23] المصْدَرُ نَفْسُهُ. ص 35.

وَالنُّحاةِ، وَبِما أنَّ النّحوَ وَسيلةٌ يَلْجأُ إلَيْها المتعلِّمُ وَالباحِثُ لِضبْطِ أواخِرِ الكلماتِ، وَمعرِفَةِ العلاقاتِ بيْنها فيْ الجُملِ وَالعباراتِ، فإنّنا فيْ هذا الإطارِ نُمَيِّزُ نوْعيْنِ مِنَ النّحْوِ، وَهُما: النّحوُ العلْميُّ التّحْليليُّ، وَالنّحوُ العلْميُّ التّرْبوِيُّ.

يُعتبَرُ حينَ أقْبلَ اللُّغويُّونَ وَالنّحاةُ العربُ على اِسْتنْباطِ القواعدِ النّحويَّةِ مِنْ كلامِ العربِ، الجانبَ العلْميَّ المحْضَ لِلنّحْوِ وَالّذيْ يندرِجُ تحْتَ ما يُعرَفُ بِاللِّسانيّاتِ النّظريَّةِ، وَيقومُ هذا الجانِبُ أساسًا على نظريّةٍ لُغويَّةٍ ترومُ الدِّقَّةَ فيْ الوصْفِ وَالتّفسيرِ، وَتتّخِذُ لِنفسِها أدَقَّ المناهِجِ لِتحقيقِ هذا الهدَفِ. فهو إذنْ، نحْوٌ تَخصُّصِيٌّ تجْريدِيٌّ يُدرَسُ لِذاتِهِ، فعنْهُ وَعنْ طبيعتِهِ يقولُ الدّكتور الحاج صالِح: "يُعَدُّ نشاطًا قائمًا بِرأْسِه، أهْدافُهُ القريبَةُ الخاصّةُ بِه هيَ الاِكْتشافُ المستمِرُّ، وَالخلْقُ، وَالإبْداعُ. وَهَذا هو الأساسُ وَالمنْطلَقُ فيْ وضْعِ نحْوٍ تعْليميٍّ تُراعى فيهِ قوانينُ علْمِ التّدريسِ".

فقدْ ألّف الكثيرُ مِنَ العلماءِ القدامى وَالمحْدَثينَ فيْ النّحْوِ، فالقُدامى منهُمْ عمِلوا على جمْعِ اللُّغةِ وَاِسْتنْباطِ القواعدِ النّحْويّةِ، مثْلُ: سيبَويْهِ فيْ (الكتابِ)، وَالمبَرّد فيْ (المقْتضَبِ)، وَابْنِ جِنّيّ فيْ (الخصائصِ)، وَالزّجّاجيّ فيْ (الجُمَلِ). وَأمّا ما كانَ فيْ شكْلِ كتُبٍ تعْليميّةٍ، فإنّنا نذكُرُ على سبيلِ المثالِ: اِبْنُ هشامٍ فيْ (شرْحِ شُذورِ الذّهبِ)، وَفيْ (مُغْنيْ اللّبيبِ)، وَابْنُ مالكٍ فيْ (الألْفيَّةِ). أمّا المحْدثونَ، فقدْ حاوَلوا التّأْليفَ فيْ كَيْفيّةِ تعليمِ النّحْوِ، وَبحثوا فيْ طرائقِ تدْريسِهِ، وَمنهُمْ: إبراهيم مُصْطفى فيْ (إحياءِ النّحْوِ)، وَشوْقيْ ضيف فيْ (تَيسيرِ النّحوِ).

فَالنّحوُ التّعليميُّ التّربويُّ هوَ النّوعُ الّذيْ يُمثِّلُ المستوى الوظيفيَّ وَالأجْدى لِتقْويمِ اللِّسانِ وَسلامةِ الخِطابِ، وَتحقُّقِ الغرَضِ مِنَ الأداءِ، وَحُسْنِ ترْجمةِ الحاجاتِ وَالمقاصِدِ، فهوَ إذنْ: نَحْوٌ يُرَكِّزُ بِالدّرجةِ الأُولى عَلى المكوّناتِ المعرفيّةِ الّتيْ فيْ أَمَسِّ الحاجةِ إلَيْها المتعلِّمُ. وَلِهذا يَعْمَلُ واضِعو الكتُبِ التّعليميّةِ عَلى اِخْتيارِ المضامينِ المناسبَةِ، وَتَكْييفِها تَكْييفًا مُحْكَمًا يتماشى وَأهْدافَ التّعليمِ، وَظُروفَ العمليّةِ التّعْليميَّةِ؛ لِأنّ النّحوَ التّعليميَّ يَنْبُع مِنَ الأُسُسِ اللُّغويّةِ، وَالنّفسيَّةِ، وَالتّرْبويّةِ، ويَندرِجُ تحْتَ ما يُعرَفُ بِاللِّسانيّاتِ

التّطبيقيّةِ، أيْ كيفيَّةِ تطْبيقِ القواعِدِ وَالنّظريّاتِ النّحويّةِ عَلى النُّصوصِ المتكاملَةِ. وَقدْ مرَّ كلٌّ مِنَ النّحْويْنِ: العلْميّ وَالتّعليميّ بِمرْحلتيْنِ، وَهُما:

- شرْحُ القواعِدِ النّحْويّةِ بِأُسْلوبٍ تعْليميٍّ، وَقدْ فعلَهُ اِبْنُ هشامٍ فيْ كتابيْهِ: (المغْنيْ)، وَ(شرْحِ شُذورِ الذّهبِ فيْ معْرِفَةِ كلامِ العرَبِ).
- البحْثُ عنْ آليّاتِ تلْقينِ هذِه القواعدِ النّحْويّةِ وِفاقَ أُسْلوبٍ منْهجِيٍّ تعليميٍّ حديثٍ فيْ ظلِّ طرائقِ التّدْريسِ، وَكلِّ ما لهُ صِلةٌ وثيقَةٌ بِالعمليّةِ التّعليميّةِ.

وَلِهذا، لمْ تكُنِ المصنّفاتُ الأولى علْميّةً خالِصَةً؛ لأنّ السّببَ الرّئيسَ فيْ ظهورِ النّحْوِ هُو التّعْليمُ. وَلِهذا أمْكنَ القوْلُ إنّها مُصنّفاتٌ علْميّةٌ-تَعْليميّةٌ، أَلمْ يُنبِّهْ أبو الأسْودِ كاتبَهُ بِقولِهِ "إذا رأَيْتنيْ قدْ فتحْتُ فَميْ بِالحرْفِ... وَإنْ ضَمَمْتُ..." مُعْتمِدًا فيْ ذلِكَ عَلى حاسَّتيْ: السّمْعِ وَالبصَرِ؟ وَخيْرُ دليلٍ على وجودِ صفَةِ العلْميّةِ وَالتّعليميّةِ فيْ هذِه المؤلَّفاتِ، كتابُ: (الأصولِ) الّذيْ جَسَّدَ النّحْوَ فيْ جانِبه العلْميّ عَنْ طريقِ السّماعِ عنِ العرَبِ، وَجمْعِ اللُغةِ لِتفْسيرِ القُرْآنِ وَالحديثِ، حتّى عدَّهُ البعْضُ بِالنّحْوِ التّفْسيريّ، كَما جسَّد النّحوَ فيْ جانِبِهِ التّعليميّ حسَبَ ما صرَّحَ بِه صاحبُ الكِتابِ بِقولِه: "ولما كنْتُ لمْ أَعْمَلْ هَذا الكتابَ لِلْعالِمِ دونَ المتعلِّمِ، اِحْتجْتُ إلى أنْ أذْكُرَ ما يَقْرُبُ على المتعلِّمِ"[24]. وَقدِ اِهْتدى اِبْنُ السّرّاجِ إلى أُسلوبِ الحوارِ وَالمخاطبَةِ، وَاِنْتهاجِ طريقِ التّقْليلِ مِنَ التّقْسيماتِ وَالتّفْريعاتِ ما أمْكنَ ذلِك، معَ مُراعاةِ وُضوحِ العِبارَةِ، وَعرْضِ الشّواهدِ الكاملَةِ وَإعْرابِها، وَالتّطبيقِ عَلى المسائلِ النّحويّةِ بِآياتِ القُرْآنِ الكريمِ، بلْ حتّى إنّهُ لِتحْقيقِ الغرَضِ التّعْليميّ مِنْ كتابِهِ، كانَ مُتسامِحًا فيْ اِسْتعْمالِهِ لِلْمُصْطلحاتِ، فلَمْ يكُنْ يَتقيَّدُ بِمصْطلحاتِ مَذهبِهِ البصْريّ، بلْ تَجاوزَ ذلِكَ إلى توْظيفِ مُصْطلحاتِ المدْرسَةِ الكوفيَّةِ. كَما عمِلَ اِبْنُ السَّرّاجِ على التّصرُّفِ فيْ النُّصوصِ لِتقْريبِ المعْنى

[24] اِبْنُ السّرّاجِ. **الأصُولُ فيْ النّحْوِ**. تحق "عبْد الحسين الفتْليْ". مؤسّسةُ الرّسالةِ. بيْروت/لُبْنان. ط3. ج1. 1996. ص 37.

لِلْمُتعلِّمِ مِثْلما فعَلَهُ معَ نَصِّ المبَرِّدِ، ضِفْ إلى ذلِك، فهُوَ لمْ يكُنْ يأْخُذُ وَيَرُدُّ فِيْ كلِّ مسْأَلةٍ حينَ تَعلَّقَ الأمْرُ بِالخِلافاتِ النّحْويَّةِ الّتِيْ طبَعَتْ جُلَّ المصنّفاتِ، فقَدِ اِكْتفى بِذِكرِ أدلَّةِ كُلِّ فريقٍ.

5- تَيْسيرُ تَعْليميَّةِ النّحْوِ العربيّ

بِما أنَّ تعْليميَّاتِ النّحْوِ عُدَّتْ مِنْ مُشْكِلاتِ العصْرِ، فإنَّ التّفْكيرَ في سُبُلِ تيْسيرِها على المتعلِّمِ في زمانٍ يتلقَّى فيهِ الفُصْحى تعلُّمًا وَصِناعةً، لا طبْعًا وَاِكْتِسابًا، صارَ أمْرًا ضروريًّا واجِبَ التّحْقيقِ، وَسيظلُّ كذلِك يفْرِضُ وُجودَهُ حاضِرًا وَمُسْتقْبلاً؛ لأنَّ عواملَ كثيرةً اِرْتبطَتْ بِمادَّةِ النّحْوِ فجعلَتْ قَواعِدها تتَّسِمُ بِالصُّعوبةِ في المجالِ التّرْبويّ، وَمنْها:

- جَفافُ المناهِجِ التّعْليميَّةِ.
- عُقْمُ الكتُبِ التّعْليميَّةِ.
- قُصور طَرائقِ التّدْريسِ عنْ تمْكينِ المتعلِّمِ مِنْ هَذِه المادَّةِ.
- سُوءُ فهْمِ الغايةِ مِنْ تدْريسِ القَواعِدِ.
- غِيابُ الدّافِعِ لَدى المتَعلِّمِ لِلإقْبالِ عَلى هَذا النَّشاطِ.
- قُصور المعلِّمينَ وَالمربّينَ عَنِ اِسْتِثْمارِ القَواعدِ النَّحْويَّةِ اِسْتِثْمارًا ذا مرْدوديَّةٍ عالِيةٍ بِغرَضِ تمْكينِ المتَعلِّمِ مِنَ السّلامَةِ اللُّغويَّةِ، وَالتِّلْقائيَّةِ في التّعْبيرِ.
- طُغْيانُ التَّحْليلِ الفَلْسفِيّ عَلى طبيعَةِ المادَّةِ النّحْويَّةِ المدرَّسةِ، فضْلاً عَنِ اِزْدِحامِ المصْطلحاتِ فيها، وَكثْرةِ التّفْريعاتِ وَالتَّأْويلاتِ.

وَبِالرّغْمِ مِنَ العِنايةِ الفائقَةِ الّتي تُوليها المنْظومَةُ التّرْبويَّةُ لِتعْليميَّاتِ النّحْوِ، إلاّ أنَّ الواقِعَ المعيشَ يُشيرُ إلى ضُعْفِ المتعلِّمِ في اللُّغةِ العربيَّةِ في مُسْتويَيْها: الشّفَهيّ، وَالكِتابِيّ، ضِفْ إلى ذلِكَ القائمَةَ العَريضةَ لِلأخْطاءِ النّحْويَّةِ وَالشّائعةِ في كَلامِه، وَقِراءَتِه، وَكِتابتِه؛ وَهَذا الواقِعُ -واقِعُ ضُعْفِهِ- ينْطَبِقُ عَلى مَراحلِ التّعْليمِ كُلِّها، بلْ وَحتّى الطّالِب الجامِعِيّ

لمْ يسْلَمْ مِنْ تلْكَ الأخْطاءِ النّحْويَّةِ، وَمِنْ ذلِكَ الوَهنِ في لُغتِهِ العَربيَّةِ. فَالمعلِّمُ، نَراهُ يبْذُلُ قُصارى جُهودِهِ، ويُنْفِقُ الوقْتَ كلَّهُ في تعْليمِ المادَّةِ النّحْويَّةِ وَتعلُّمِها، إلاَّ أنّهُ في المقابلِ، لا يُدْرِكُ النّتائجَ الّتي تتَّفِقُ وَنظيرَ ما صُرِفَ مِنْ جُهْدٍ وَوقْتٍ. وَلكنْ، إذا ما حاوَلْنا اِسْتقْراءَ واقِعِ تعْليميَّاتِ النّحْوِ في مَدارِسِنا وَثانويّاتِنا، فإنَّهُ -وَلا شكَّ- تصْدِمُنا أسْبابٌ كثيرةٌ وبِنِسَبٍ مُتفاوِتةٍ، تَضافرَتْ جمِيعُها في بُروزِ أزْمةٍ في المجالِ التّرْبويّ، اِسْمُها: **أزْمة النّحْوِ**.

وَمنْ بيْنِ هذِه الأسْبابِ، نذْكُرُ ما يَلي:

- عدَمُ وُضوحِ الأهْدافِ مِنْ تدْريسِ مادَّةِ النّحْوِ، فهيَ مادَّةٌ في غالِبِ أحْوالِها، تُدْرَسُ بعيدةً عَنِ الغايَةِ المقْصودةِ.
- سُوءُ فهْمِ وَظيفةِ القواعدِ، ما نجَمَ عنْهُ سُوءُ اِسْتغْلالِها مِنْ قِبَلِ المعلِّمِ.
- ضُعْفُ التّكْوينِ لَدى مُعلّميّ اللُّغةِ العربيَّةِ.
- اِفْتِقارُ الكتُبِ التّعْليميَّةِ، وبِالخُصوصِ مَضامين النّحْوِ، إلى مادَّةٍ نحْويَّةٍ تعْليميَّةٍ تربوِيَّةٍ مُناسِبةٍ، قائمَة أساسًا عَلى مجْموعةٍ مِنَ المقاييسِ العِلْميَّةِ، وَالنَّفْسيَّةِ، والتّرْبوِيَّةِ، وَالّتي تُراعي في ظلِّها طبيعَةَ المادَّةِ، وَكذا طَبيعَة المسْتخْدِمِ لَها، أيْ: المتَعلِّم.

وَلِهذِه الأسْبابِ أوْ تلْكَ، وَمنْ نافلَةِ تيْسيرِ تعْليميَّاتِ النّحْوِ لَدى النّاشئةِ، لَجَأَ اللُّغوِيُّونَ القُدامى وَحتّى المحْدثونَ إلى عالَمِ التّأْليفِ، فَوضَعُوا مُخْتصَراتٍ تعْليميَّةً، وَكتُبًا مدْرَسيَّةً، وَأنْجَزوا بُحوثًا وَدِراساتٍ عَميقةً نابِعَةً أفْكارُها مِنْ باعِهِمُ الطّويلِ فيْ ميْدانِ التّرْبيَّةِ وَالتّعْليمِ، ومِنَ الملاحَظاتِ الميْدانيَّةِ الَّتي سَجَّلوها عنْ واقِعِ تدْريسِ النّحْوِ. فجاءتْ جهُودُ تيْسيرِ هَذِه المادَّةِ في شكْلِ تبْسيطِ لُغةِ العَرْضِ لِلْمتعلِّمِ، وَسُهولةِ المأْخذِ بِالنِّسْبةِ لِلشّواهِدِ المعْتمَدَةِ مِنْ قِبَلِ هَؤلاءِ اللُّغوِيّينَ القُدامَى منْهُمْ وَالمحْدَثينَ. وَمنْهمْ مَنْ عَمَدَ إلى الاِخْتِصارِ في عرْضِ القَواعدِ، حتّى إنَّ البعْضَ منْهُمْ تجاوزَ حُدودَ المعْقولِ، فَأَقْبلَ عَلى النّحْوِ يحْذِفُ جُزْءًا ليْسَ بِاليسيرِ مِنْ أُصولِه وَأبْوابِه مِنْ مُنْطلَقِ أنَّ المحْذوفَ لا يُفيدُ

المتعلّمَ شيْئًا، وَلا خيْرَ فيهِ. وَعليْهِ، تلوَّنتِ الجُهودُ المبْذولَةُ منْذُ الأرْبعينيّاتِ لِحَلّ إشْكالِ تعْليمِ النّحْوِ مادَّةً وَطريقَةً بِلوْنيْنِ، وَهُما: كانتْ تلْكَ الجهودُ تارَةً في شكْلِ عِنايةٍ بِالقَواعدِ النّظَرِيَّةِ التّحْليليَّةِ عِنايةً لا نَظيرَ لَها، وَتارَةً ظهَرتْ بِثوْبِ التّمرُّدِ عَلى التُّراثِ وَالتّأليفِ عكْسَ تيّارِه.

وَمعَ ذلِكَ، فقَدْ ظهَرَ وسْطَ هَذيْنِ التيّارَيْنِ مِنَ الجهودِ المبْذولَةِ، تيّارٌ مُعْتدِلٌ اِتّسَمَ بِالموْضوعيَّةِ وَالعِلْميَّةِ لِحَلّ أزْمةِ النّحْوِ، وَدَعا إلى اِسْتغْلالِ كلّ الخِبْراتِ، واِسْتثْمارِ المسْتجدَّاتِ العِلْميَّةِ وَالتِّقَنيَّةِ الَّتي جاءتْ بِها اللِّسانيَّاتُ التّطْبيقيَّةُ وَتعْليميَّاتُ اللُّغاتِ، كَما جعَلَ أنْصارُ هَذا التيّارِ كفاءَةَ التّواصُلِ نُقْطةَ اِنْطِلاقِهِمْ، وَآمنوا جميعُهُمْ بِمبْدأ الاِنْتِقاءِ عنْدَ وَضْعِ المضامينِ النّحْويَّةِ، عَلى أنْ تُخْتارَ الوَظيفيَّةُ مِنْها لا غيْرُ، مَعَ ضَرورَةِ اِعْتِمادِ الطَّريقةِ النّاجِحةِ لِعرْضِ هَذِه المضامينِ عَلى المتعلّمِ، الطّريقةِ الَّتي تُوفِّرُ الوقْتَ وَالجُهْدَ، وَتُمكِّنُ مِنْ تثْبيتِ الكَفاءَةِ (الكِفايَةِ) اللُّغويَّةِ.

وَبِعبارةٍ أُخْرى، حاوَلَ أنْصارُ هَذا التيّارِ تكْييفَ عِلْميْ: الصّرْفِ، وَالنّحْوِ معَ المعاييرِ وَالمقاييسِ الّتي تتَطلَّبُها التَّرْبيَّةُ الحَديثةُ مِنْ تبْسيطٍ لِلصُّورَةِ الَّتي تُعرَضُ فيْ ظلّها القَواعِدُ عَلى المتَعلّمِ. إذنْ، فَالمفْهومُ الإجْرائيُّ لِمصْطلَحِ تيْسيرِ النّحْوِ يقْتصِرُ أساسًا عَلى كيْفيَّةِ تدْريسِ النّحْوِ، لا عَلى النّحْوِ ذاتِهِ. وَهَذا ما أَلْمَحَتْ إليْهِ مُنْذُ عُقودٍ ثلاثَةٍ المدْرسَةُ الخَليليَّةُ الحَديثةُ، حينَ لَفتَتِ اِنْتِباهَ المصْلِحينَ وَالمجدِّدينَ إلى ضَرورةِ تمْييزِ النَّحْوِ التّعْليميّ التّرْبويّ مِنَ النّحْوِ العِلْميّ التّحْليليّ "وَهِيَ مجْموعُ القَواعدِ النَّحْويَّةِ المنْتقاةِ ممّا تَمَّ التَّوصُّلُ إليْهِ في علْمِ النَّحْوِ: النَّحْوِ العِلْميّ. هَذا ما يَعْني أنْ ليْسَ كلُّ ما تَمَّ اِسْتنْباطُهُ مِنْ قَوانينَ، وَما تَمَّ بِناؤُهُ مِنْ نماذِجَ فيْ مجالِ الدِّراساتِ اللِّسانيَّةِ الصِّرْفةِ يصْلُحُ لِلتَّعلُّمِ وَالتّعْليمِ؛ وَهُو الأمْرُ الَّذي أوْدى بِالكَثيرِ مِمَّنْ دَعَوْا إلى تيْسيرِ النّحْوِ العربيّ في أخْطاءٍ وَمَزالِقَ كانوا في غِنًى عَنْها؛ لأنَّهُمْ لمْ يُدْرِكوا الفُروقَ البيِّنَةَ الَّتي تُمَيِّزُ النَّحْوَ التّعْليميَّ عَنِ

النّحْوِ العِلْميّ، فَراحوا يُنادونَ بتيْسيرِ عِلْمِ النّحْوِ قاصِدينَ النّحْوَ التّعْليميَّ"[25]. فَالنّحْوُ التّعْليميُّ التّرْبويُّ هُو المرادُ فيْ العَمليَّةِ التَّعْليميَّةِ–التَّعلُّميَّةِ؛ لأنَّهُ نَحْوٌ وَظيفيٌّ مُؤَسَّسٌ عَلى مُرْتكَزاتٍ عِلْميَّةٍ، وَمَعاييرَ مَوْضوعيَّةٍ يُراعِي في ظلِّها وَبِالدَّرجةِ الأُولى:

- أهْدافَ التّعلُّمِ.
- حاجاتِ المتعلِّمِ، وَمُتطلَّباتِه اليوْميَّةَ.
- ظُروفَ العمليَّةِ التّعْليميَّةِ، وَأجْواءَها.

وَمنَ الأُمورِ الّتي دعتْ إليْها المدْرسَةُ الخَليليَّةُ الحديثةُ، هوَ ضَرورةُ ممارسَةِ المعْرِفةِ النَّظريَّةِ لِلْقَواعدِ واِسْتعْمالِها، وَكذا اِسْتثْمارِها، فَلا خيْرَ يُرْجى مِنْ قَواعدَ تُسْتظْهرَ وَلا تُطبَّقُ، فَليْسَ بِالقَواعدِ وَحْدَها نجْعَلُ المتعلِّمَ يُعبِّرُ بِكلِّ طلاقةٍ، وَإنَّما النّحْوُ وَسيلةٌ لِضبْطِ الكَلامِ، وَصِيانةِ اللِّسانِ مِنَ الخَطأ، وَصِحَّةِ النُّطقِ وَالكِتابةِ، وَضَرورة لا غِنًى عَنْها في تعْليمِ اللُّغةِ، وَاِكْتِسابِ السَّليقةِ، وَما اِكْتِسابُ السَّليقةِ إلاَّ مِنْ طَريقِ التّدَرُّبِ، وَالممارسَةِ الفِعليَّةِ.

وَإنْ شِئْنا أنْ نُلخِّصَ حُلولَ أزْمةِ النّحْوِ في كَلمةٍ، لَقُلْنا: أنْ تُعْرَضَ القَواعِدُ عَلى المتعلِّمِ عرْضًا وَظيفيًّا مِنْ خِلالِ تَراكيبَ بِنويَّةٍ، وَأنْماطٍ لُغويَّةٍ مُتدرِّجةٍ في الصُّعوبةِ "يُرادُ بِالتَّدرُّجِ الكيْفيَّةُ الَّتي تُعْتَمَدُ في جمْعِ العَناصِرِ اللُّغويَّةِ وَترْتيبِها –داخِلَ النُّصوصِ، وَأثناءَ السّيْرِ الفِعْلِيِّ لِلدُّروسِ– ثُمَّ تقْديمِها؛ بِمعْنى الطّريقة الَّتي تُرتَّبُ وَتُقدَّمُ بِواسِطتِها العَناصِرُ اللُّغويَّةُ، كَالاِنْتِقالِ مِنَ السّهْلِ إلى الصّعْبِ، وَمِنَ الملْموسِ إلى الأكْثرِ تجْريدًا أوْ بِاِعْتِمادِ مَبْدأ الاِحْتياجاتِ وَاِهْتِماماتِ المتعلّمينَ وِفْقًا لِأرْصِدتِهِمْ اللُّغويَّةِ القبْليَّةِ، وَمركّباتِهِمْ المعْرِفيَّةِ العامَّةِ"[26]، ثُمَّ دفْعُ المتَعلِّمِ إلى إنْجازِ سِلْسِلةٍ مِنَ التّطْبيقاتِ الآليّةِ وَالتَّواصُليَّةِ، وَالتّحْليليَّةِ المنظَّمةِ بِغرَضِ تَثْبيتِ قاعِدةٍ ما في ذِهْنِه بِطَريقةٍ ضِمْنيَّةٍ، وَدَعْوَتِه إلى تَكْرارِ

---

[25] نصْرُ الدّين بوحساين. **تعْليمُ اللُّغةِ العربيّة، واقِعٌ وآفاقٌ**. مجلّةُ العربيّة. مَخْبَرُ علْمِ تعْليمِ العربيّةِ. المدرسَةُ العُلْيا لِلأساتذَةِ. بوزرّيعة/الجزائر. ع3. السُّداسيّ الأوّلُ 2011. صَ ص 29– 30.

[26] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 31.

المِمارَسَةِ حتّى يبْلغَ بِما تَعلَّمهُ مِنْ معْرِفةٍ نحْويَّةٍ دَرجَةَ التّمَكُّنِ مِنَ اللُّغةِ وَالتَّحَكُّمِ في أدَواتِها: كِتابَةً، وَمُشافهَةً، فَتَرْتسِم في ذِهْنِه أشْكالُ التَّرْكيبِ المتنوّعةُ، وَيُدرِكُ مَواضِعَ الرَّفْعِ، وَالنّصْبِ، وَالخفْضِ بِحَسَبِ ما تُمْليهِ المعاني المتوَخّاةُ. أيْ بِعبارَةٍ أُخْرى: أنْ يمْتلِكَ المتَعلِّمُ القُدْرَةَ النَّحْويَّةَ الَّتي بِها يُفَكِّكُ الخِطابَ اللُّغَويَّ، وَهَذا ما أشارَ إلَيْهِ الباحِثُ نصْر الدّين بوحَساين وَهْوَ يُحدِّثُنا عَنِ القُدْرَةِ النَّحْويَّةِ قائلاً: "وَتتمَثَّلُ في مُخْتلِفِ الآليّاتِ الَّتي تَسْمَحُ لِلْفرْدِ تَفْكيكَ الخِطابِ اللُّغوِيّ، بِما يَسْمَحُ لهُ بِفَهْمِهِ أوْ فهْمِ أكْبرِ عَدَدٍ مِنَ السّلاسِلِ الَّتي تُرَكِّبُهُ"[27].

وَقدْ أطْلَعَنا مِنْبَرُ التَّاريخِ عَلى المحاوَلاتِ الأُولى لِتبْسيطِ تَعلُّمِ النَّحْوِ لِلنّاشِئةِ، وَالَّتي سَجّلها العُلَماءُ مِنْ لُغويّينَ وَنُحاةٍ، وَهيَ مُحاوَلاتٌ جادَّةٌ تَدُلُّ بِحَقٍّ عَنْ وَعْيِ هَؤلاءِ بِضَرورَةِ وَضْعِ كتُبٍ تَعْليميَّةٍ تُناسِبُ مُخْتلِفَ الفِئاتِ مِنَ المتَعلِّمينَ. وَفِعْلاً، اِهْتدَوا إلى تَأْليفِ مُتونٍ ضمَّتْ بيْنَ دفَّتيْها مَواضيعَ النَّحْوِ الأساسَةَ وَفي صَفْحاتٍ قَليلَةٍ، عرَضَ فيها هَؤلاءِ ما يَسُدُّ حاجَةَ المتَعلِّمِ بِلُغةٍ بسيطةٍ فيها تَرْكيزٌ وَدِقَّةٌ فيْ الصِّياغةِ، كَما اِجْتهَدوا فيْ اِنْتِقاءِ المادَّةِ النَّحْوِيَّةِ، وَعَرْضِها وِفاقَ مبْدَأ التَّدرُّجِ، مُهْمِلينَ ما وَسِعَهُمْ جُهْدُهُمْ المسائلَ الخِلافيَّةَ مِنْ غيْرِ تعَصُّبٍ لِمَذْهبٍ أوْ ذاكَ، كُلُّ هَذا في سَبيلِ تقْريبِ النَّحْوِ مِنَ المتعلِّمِ[28].

إنَّ تساؤُلاً وَجيها يفْرِضُ نفْسَه عَلَيْنا في إطارِ مُناقشَةِ أزْمةِ النَّحْوِ، وَهوَ: ما القصْدُ مِنْ وَراءِ مُصْطلَحِ التّيْسيرِ؟ أ هُو اِخْتصارٌ فيْ القَواعِدِ، فيَعمَلُ المؤلِّفُ عَلى حصْرِ مَسائلِها لِتمْكينِ المتَعلِّمِ مِنْ حِفْظِها لا غيْرُ، مِثْلما فعَلَ اِبْنُ الحاجِبِ في الفِقْهِ وَأُصولِ الفِقْهِ، وَاِبْن مالِكٍ في الأَلْفيَّةِ؟ إنَّ مثْلَ هذِه الاِخْتصاراتِ المؤضوعةِ في عِلمٍ مِنَ العُلومِ فيْ رأْينا وَرأيِ أهْلِ الاِخْتِصاصِ، مُخِلَّةٌ بِالتّحْصيلِ، وَمِنْ سُوءِ التّعْليمِ كَما أشارَ إلَيْهِ اِبْنُ

---

[27] المرْجِعُ نفْسُهُ. ص 45.

[28] أمّا عنِ الكتُبِ الّتيْ تُميّزُ مُحاولاتِ القُدامى منَ العُلماءِ واللُّغويّينَ، فهيَ بِحسَبِ التّرْتيبِ الزّمنيّ لِوفاةِ أصْحابِها: (الجُمَلُ) لِلزّجّاجيّ، و(اللُّمَعُ) لِابْنِ جنّيّ، و(قَطْرُ النّدى) لِابْنِ هشامٍ الأنْصاريّ

خلْدونَ فِيْ مُقَدّمتِهِ. فَالتّيْسيرُ إذنْ، ليْسَ معْناهُ: الاِخْتِصارُ؛ لِأنَّ القاعِدَةَ المعْمولَ بِها تَقول: إطْنابٌ وَإسْهابٌ مَعَ شَيءٍ مِنَ التّبسيطِ، أحْسنُ وَأجْدى فِيْ العَمليَّةِ التّرْبويَّةِ مِنْ إيجازٍ وَاِقْتِضابٍ وَمعهُ شيْءٌ مِنَ التّعْقيدِ وَالإبْهامِ، بَلْ هُو-أيْ: التّيْسيرُ- طَريقةٌ نتَمَكَّنُ بِها مِنْ عرْضٍ جَديدٍ لِمَواضيعِ النّحْوِ، تُحَوَّلُ في ظلِّها المادَّةُ النّحْويَّةُ الخامُّ وَالجافَّةُ إلى مادَّةٍ حيَّةٍ صالحَةٍ لِلاسْتهْلاكِ.

خاتمة

هُناكَ مُشْكِلاتٌ كَثيرَةٌ تَحولُ بَيْنَ دِراسَةِ النّحْوِ وَبَيْنَ التَّمَكُّنِ مِنْهُ وَإِتْقانِ أَبْجَدِيّاتِهِ، مِنْها ما هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالضُّعْفِ المشْهودِ فِيْ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِيْ المجْتَمَعِ العَرَبِيّ، وَمِنْها ضُعْفُ المسْتَوى العِلْمِيّ لِمُدَرِّسِيّ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَغِيابُ إِلْمامِهِمِ الشّامِلِ بِقَواعِدِ نَحْوِها... وَغَيْرُها مِنَ المشْكِلاتِ الَّتِيْ طَفَتْ عَلى سَطْحِ المنْظومَةِ التّرْبَوِيَّةِ فِيْ الدّاخِلِ وَالخارِجِ. أَمّا عَنِ المشْكِلَةِ الرَّئيسَةِ فِيْ تَعْلِيمِيَّةِ النّحْوِ، فَإِنَّها تَكْمُنُ فِيْ طَريقَةِ تَدْريسِ النّحْوِ العَرَبِيّ فِيْ المدارِسِ وَالثّانَوِيّاتِ وَحَتَّى فِيْ الجامِعاتِ، وَالَّتِيْ تَرْتَكِزُ بِالأَساسِ عَلى إِتْقانِ الإِعْرابِ، وَاِسْتِظْهارِ القَواعِدِ النّحْوِيَّةِ، وَهَذا ما يَحْدُثُ لِلْمُتَعَلِّمِ إِذا ما أَرادَ تأليفَ تَرْكيبٍ أَوْ إِنْشاءِ تَعْبيرٍ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ نُطْقًا وَكِتابَةً، تَراهُ يَقَعُ فِيْ شَرَكِ الأَخْطاءِ الفاحِشَةِ!

وَقَدْ نَجَمَ عَنْ هَذِهِ المشْكِلاتِ بُروزُ صُعوباتٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِمادَّةِ النّحْوِ مِنْ حَيْثُ هِيَ إِرْثٌ حَضارِيٌّ قَيِّمٌ وَرَفيعٌ وَصَلَنا مُنْذُ القِدَمِ؛ وَإِنَّنا نُحاوِلُ تَلْخيصَ نَتائِجِ وَرَقَتِنا البَحْثِيَّةِ فِيْ عَرْضِ هَذِهِ الصُّعوباتِ فِيْ الجَوانِبِ التّالِيَةِ:

- اِعْتِمادُ النُّحاةِ فِيْ عِلْمِ النّحْوِ عَلى مَنْطِقِ العَقْلِ (المِعْيارِيَّةِ)، وَإِغْفالِ الإِلْتِفاتِ إِلى مَنْطِقِ اللُّغَةِ وَطَبيعَتِها (الوَصْفِيَّةِ)؛ لأَنَّ الإِتِّجاهَ الحَديثَ فِيْ تَعْليمِيّاتِ اللُّغاتِ يَقومُ أَوَّلاً عَلى وَصْفِ اللُّغَةِ المسْتَعْملَةِ لِلْمُتَعلِّمِ.
- تَأَثُّرُ النُّحاةِ بِعُلماءِ الكَلامِ مِنْ مُنْطلَقِ أَنَّ لِكُلِّ أَثَرٍ مُؤَثِّرًا، فَانْتَهى بِهِمُ المطافُ إِلى نَظَرِيَّةِ العامِلِ وَالمبالَغَةِ فِيْ البَحْثِ عَنِ العِلَلِ وَعِلَلِ العِلَلِ.
- جَفافُ النّحْوِ وَتَعْقيدَاتُهُ المتَمَثِّلَةُ فِيْ اِخْتِلافِ الرِّواياتِ حَوْلَ مَسائلَ شَتَّى، وَاِعْتِمادِها بِالدَّرَجَةِ الأُولى عَلى التّحْليلِ المنْطِقِيّ الَّذِيْ يَسْتَدْعِيْ تَوَسُّلَ الفِكْرِ لِاسْتِنْباطِ الأَحْكامِ العامَّةِ.

وَلِهَذا –وَبِحُكْمِ باعِنا الطَّويلِ فِيْ مَجالِ التّدْريسِ– فَإِنَّنا نَقْتَرِحُ بَعْضًا مِنَ الحُلولِ الَّتِيْ نَراها مُناسِبَةً لِتَعْليمِيَّةِ النّحْوِ العَرَبِيّ، وَمِنْها:

- أَنْ يَنْطَلِقَ المدَرّسُ فِيْ تَعْليمِيَّةِ النّحْوِ مِنْ خِبْرَةٍ لَها عَلاقَةٌ مَتينَةٌ وَمُباشِرَةٌ بِمَجالٍ مِنْ مَجالاتِ المتَعلّمِ أوْ يَنْطَلِقَ مِنْ داعِيْ سَدِّ حاجَةٍ أَكيدَةٍ لَدَيْهِ.
- عَرْضُ مَواقِفَ لُغَوِيَّةٍ مُتَنَوّعَةٍ وَكَثيرَةٍ لِمُحاكاةِ ما وَرَدَ مِنْ أَحْكامٍ فِيْ القاعِدَةِ العامَّةِ المسْتَنْبَطَةِ، وَاقْتِراحُ نَماذِجَ لُغَوِيَّةٍ تَطْبيقِيَّةٍ مُكَثَّفَةٍ لِلتَّدْريبِ عَلَيْها.
- عَرْضُ المادَّةِ النّحْوِيَّةِ فِيْ ظِلِّ الأَساليبِ أَوْ ما يَعْرَفُ بِالنُّصوصِ المتَكامِلَةِ مِنْ مَنْظورِ تَطْبيقِ (المقارَبَةِ النّصِّيَّةِ).
- الاِهْتِمامُ بِوَضْعِ اِسْتِراتيجِيَّةِ عِلاجِ المشْكِلاتِ مُباشَرَةً بَعْدَ حَصْرِها، وَوَضْعِ اليَدِ عَلى مَواطِنِ الضُّعْفِ لَدَى المتعلّمِ.
- التّقْليصُ مِنَ النّحْوِ غَيْرِ الوَظيفِيِّ، وَتأجيلُ مَضامينِهِ إلى مَراحِلَ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ المسارِ الدِّراسِيِّ لِلْمُتعلّمِ.
- الاِهْتِمامُ بِتَوْفيرِ الجَوِّ المناسِبِ لِلْمُتَعَلِّمِ لِمُعايَشَةِ النُّصوصِ العَرَبِيَّةِ السَّليمَةِ وَدَفْعِهِ إلى حِفْظِها، وَالتَّدَرُّبِ عَلى قِراءَتِها، وَسَماعِها، وَكِتابَتِها لِحُصولِ مَلَكَةِ إنْشائِها نُطْقًا وَكِتابَةً عَلى نَحْوٍ فيهِ إتْقانٌ.
- مَنْحُ المتعَلِّمِ الفُرْصَةَ لِلتَّحَدُّثِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَالعَمَلُ عَلى تَصْويبِ أَخْطائِهِ؛ لأَنَّ تَقْويمَ الأَخْطاءِ وَتَصْويبَها ساعَةَ المِمارَسَةِ الفِعْلِيَّةِ لِلُّغَةِ، هِيَ مِنْ أَنْجَعِ الطُّرُقِ التّرْبَوِيَّةِ الَّتِيْ تُثَبِّتُ القَواعِدَ فِيْ سُلوكِ المتعَلِّمِ.
- إضْفاءُ صِفَةِ (الواقِعِيَّةِ) عَلى القَواعِدِ وَالنُّصوصِ المرافِقَةِ لَها حينَ يَتِمُّ رَبْطُها بِالواقِعِ المعيشِ لِلْمُتعَلِّمِ.
- وَأَخيرًا، العَمَلُ عَلى وَضْعِ اِخْتِباراتٍ تَكْشِفُ لَنا عَنْ نِسْبَةِ تَحَقُّقِ (الأَهْدافِ) المسَطَّرَةِ فِيْ تَعْليمِيَّةِ النّحْوِ العَرَبِيِّ، وَذلِكَ بِالتَّرْكيزِ عَلى ما يُساعِدُ المتَعلّمَ عَلى إتْقانِ التّعْبيرِ العَرَبِيِّ السَّليمِ، وَالتّحَكُّمِ فِيْ آلِيّاتِ الكِتابَةِ الصَّحيحَةِ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، لا بِالتّرْكيزِ فِيْ تَثْمينِ جُهْدِ المتعلّمِ فِيْ الاِمْتِحانِ عَلى مَدى اِسْتِظْهارِهِ لِلْقَواعِدِ وَإتْقانِ الإعْرابِ.

قائمَةُ المَصادِرِ وَالمَراجِعِ

- اِبْنُ السّرّاجِ. **الأصُولُ فِيْ النّحْوِ**. تحق «عبْد الحسين الفتْليْ". مؤسّسةُ الرّسالةِ. بيْروت/لُبْنان. ط3. ج1. 1996.

- اِبْنُ جِنّيّ (أبو الفتْحِ عثْمان). **الخصائصُ**. تحق "محمّد عليّ النّجّار". دارُ الهُدى لِلطّباعةِ والنّشْرِ. بيْروت/لُبْنان. ط2. ج1. (د.ت).

- اِبْنُ فارس. **مقاييسُ اللُّغةِ**. تحق "عبْدُ السّلامِ هارونَ". دارُ الفكْرِ لِلطّباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ. ج5. (د.ط). (د.ت).

- اِبْنُ مَنْظورٍ. **لِسانُ العربِ**. دارُ صادِر. بيْروت/لُبْنان. مج15. (د.ت).

- الأفغانيّ سعيد. **منْ تاريخِ النّحْوِ**. دارُ الفِكرِ. (د.ط). (د.ت).

- السّكّري أبو سعيد الحسَن. **ديوانُ أبيْ الأسْوَدِ الدُّؤَلِيّ**. تحق "محمّد حسَن آل ياسين". دارُ ومكْتبةُ الهلالِ لِلطّباعةِ والنّشْرِ. بيْروت/لُبْنان. ط2. 1998.

- الطّنْطاويْ محمّد. **نشْأَةُ النّحْوِ، وتاريخُ أشْهرِ النُّحاةِ**. دارُ المعارِفِ. القاهرة/(ج.م.ع). ط2. (د.ت).

- الفاكِهيّ. **شرْحُ كتابِ الحُدودِ فِيْ النّحوِ**. تحق "المتولي رمضان أحمد الدّميري". مكْتبةُ وهْبة. القاهرة/(ج.م.ع). 1993.

- الفتْلي عبْدُ الحسين محمّد وآخرونَ. **تاريخُ العربيّةِ**. مؤسّسَةُ دارِ الكتُبِ لِلطّباعةِ والنّشْرِ. (د.ط). (د.ت).

- المخْزوميْ مهْديْ. **فِيْ النّحْوِ العربيّ، نقْدٌ وتوْجيهٌ**. دارُ الرّائدِ العربيّ. بيْروت/لُبْنان. ط2. 1986.

- الميعان وضحة عبد الكريم جمعة. **التّأْليف النّحويُّ بيْنَ التّعْليمِ والتّفسيرِ**. مكتبة دار العروبةِ لِلنّشرْ والتّوزيعِ. الكويت. ط1. 2007.

- بوحساين نصْرُ الدِّين. **تعْليمُ اللُّغةِ العربيّةِ، واقِعٌ وآفاقٌ**. مجلّةُ العربيّةِ. مَخْبَرُ علْمِ تعْليمِ العربيّةِ. المدرسَةُ العُلْيا لِلأساتذَةِ .بوزرّيعة/الجزائر. ع3. السُّداسيّ الأوّلُ 2011.
- علَوي حافِظ إسْماعيل، وَامْحمّدْ الملاخ. **قَضايا اِبْسْتِمولوجِيّةٌ فيْ اللِّسانِيّاتِ**. الدّارُ العَرَبِيَّةُ لِلْعُلومِ ناشِرون. بَيْروتُ/لُبْنانُ. ط1. 2009م.